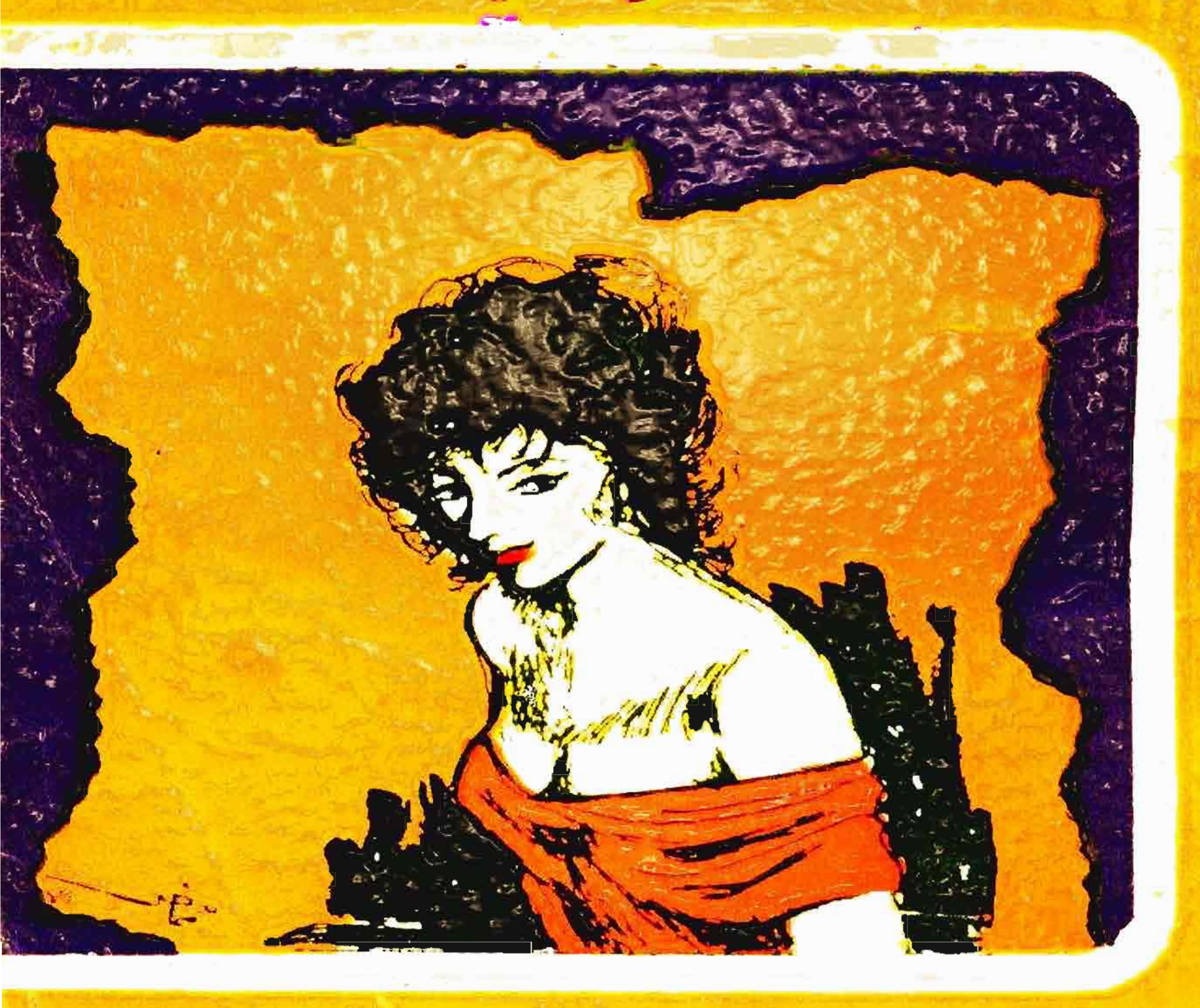
روايات الهلال

ليالي الحب والرعب

جبرييل جارسيا ماركيز

الفائز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٢

REWAYAT AL-HILAL
No. 419 — November 1983



روايات الهلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٤١٩ ـ نوفمبر ١٩٨٣ ـ صفر ١٤٠٤
No. 419 — November 1983

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: موسى عبد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ـ ١٢ عددا ـ في جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادي ، وفي بلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان خمسة جنيهات مصرية او ما يعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوي وفي سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادي وعشرون دولارا بالبريد الجوي

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفي الخارج بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من روايات الهلال .

ثمن النسخة في البلاد العربية للاعداد العادية اعتبارا من شهر يولية عام ١٩٨٣ فئة ٣٠٠ مليم للقارىء في مصر .

سوريا ٦٠٠ ق.س ، لبنان ٦٠٠ ق.ل ، الاردن ٤٥٠ فلسا ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٨٥٠ فلسا ، السعودية ٦ ريال ، السودان ٦٠٠ مليم ، تونس ٦٥٠ مليما ، المغرب ٨٠٠ فرنك ، الجزائر ٦٥٠ سنتا ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٥٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بني ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بني ، اسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بني ، اديس ابابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بني ، ايطاليا ١٤٠٠ ليرة ، سويسرا ٥ر٣ فرنك ، اثينا ٨٠ دراخمة ، فيينا ٣٥ شلن ، فرانكفورت ٥ر٣ مارك ، كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم ١٤ كرونة ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنت ، هولندا ٤ فلورين .

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشـــة الفنانة
تمـــاضر محمـــد تركي

ليـالى الحب والرعب



جبرييل جارسيا ماركيز

الفائز بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٢



محمود مسعود

دار الهـلال

مقدمة

فى ابريل الماضى أصدرت « روايات الهـلال » ترجمتنا لرواية « الضحية » للكاتب الكولومبى الـكبير جبرييل جارسيا ماركيز الحائز على جائزة نوبل فى الادب فى ختام عام ١٩٨٢ ، فكان ذلك حافزا على التماس مزيد من مؤلفات هذا الكاتب المجيد الذى طبقت شهرته الآفاق بين عشية وضحاها ، ومن ثم كان التوفيق الى هذه الرواية الجديدة التى لم يسبق ترجمتها الى العربية ، لكى نزيد القارىء متاعا بهذا اللون الفريد من الروايات والمجموعات القصصية التي لعل هذا المؤلف قد تفرد بها بين الكتاب المعاصرين والتى هيأت له أن يحتل مكان الصدارة فى الادب العالمى الحديث .

والحق أن جبرييل جارسيا ماركيز لم يظفر بجائزة نوبل عفوا ولم يقفز الى دائرة الشهرة العالمية اعتباطا ، فقد ظل السنين الطوال وهو يكافح لنشر قصة قصيرة واحدة من ثمار قلمه ولو فى النطاق المحلى المحدود لوطنه كولومبيا ولما يجاوره من جاراته فى امريـكا اللاتينية دون أن يظفر بتحقيق غايته ، وذلك برغم ماكان يعانيه من التقلب فى شتى البلاد لاستكمال تعليمه الجامعى « بدءا من الدراسة الابتدائية فى قرية اراكاتكا التى ولد فيها عام ١٩٢٨ وانتهاء بمدينة بوجوتا » لدراسة الحقوق التى لم يتح له استكمالها » . بيد أن الشرارة الادبية التى كانت تعتمل فى وجدانه تحت السطح طـوال ذلك العهد لم تلبث أن الهبها مقال لناقد ادبى وصف فيـه الادب الكولومبى بالتخلف والقصور عن مستوى الانتـاج الادبى حتى بالنسبة لبلاد أخرى فى أمريكا الجنوبية ، واذا جارسيا ينبعث الى كتابة قصة عنوانها « اذعانا للقدر من جديد » ، فيؤدى نشرها فى نفس المجلة الادبية الناقدة التى نفض التراب الذى كان يوارى اسمه والى اذكاء طموحه اللامحدود . فهو يدأب ويضنى فى تأليف المزيد من القصص يجمعها ويتحين الفرص المواتية للنشر حتى يتهيأ له صدور أول مجموعة قصصية له عام ١٩٥٢ بعنوان : « عيون الكلب الازرق » التى انالته بعض الشهرة ولكن داخل حـدود بلاده ـ

« كانت القصة المعنونة بهذا الاسم احدى قصص مجموعة «الضحية» التى سلفت الاشارة اليها » .

ولكن طموحه لا يقف به عند هذا الحد . فان اشتغاله بالصحافة فى احدى الجرائد الاجنبية الكبرى التى تصدر طبعتها المحلية فى مدينة بوجوتا كان فيه حافز آخر لمواصلة الانتاج الادبى وتدبيج أول رواية له نشرت بعنوان « الاوراق الذابلة » ، مما بدا خطوة أخرى على طريق تحقيق ماكان يصبو اليه ذاتيا لشخصية أدبية مرموقة وقوميا ككاتب يسهم فى وضع أسس نهضة أدبية لبلاده فى عداد الاداب العالمية ..

بيد أن جبريل جارسيا ماركيز كان حسن الظن بالايام أكثر مما ينبغى . فما أن ارسلته الصحيفة التى كان يعمل فيها مراسلا لها فى باريس حتى قامت الدكتاتورية فى بلاده مما اضطره الى الهجرة الى ايطاليا فى طلب الرزق ، ثم العودة الى باريس ليتعرض الى مزيد من العناء بسبب ظروف سياسبة لا دخل له فيها . ولكن هذا كله لم يكن ليغنيه عن عزمه الغلاب ، فألف روايته المعروفة باسم « لا أحد يكتب للكولونيل » والتى نشرت بعد عام ١٩٥٧ .

كان البحث عن لقمة العيش هو المحرك الاول الذى يدفعه الى دوام التنقل بين مختلف الاقطار والامصار ، وهو محرك لا يمكن اغفال أثره فى ذاتية الكاتب مهما يبلغ من طموحه الادبى ومهما تعتمل فى وجدانه عناصر الالهام والابداع الفنى ، فالكاتب بشر ، والعسر المادى معوق كبير عن التفرغ لرسالة الادب والفن « باستثناء العباقرة الذين هبأت لهم عزائمهم واقدارهم أن ينصهروا فى بوتقة المعاناة المادية ويتولد جوهرهم من ثناياها » ، وهكذا يدفع البحث عن لقمة العيش جارسيا الى النزوح عن فرنسا الى أمريكا اللاتينية مرة اخرى لكى يستقر فى فنزويلا ويعمل مراسلا لعدة صحف . فهل انساه ذلك السعى العانى غايته المزدوجة التى كرس نفسه لتحقيقها ؟ الجواب على ذلك أنه ظل يواصل الكتابة الادبية فى عزم ودأب بالغين الى أن اتسقت له مجموعة قصصية ثانية « جنازة الام الكبرى » التى نشرت قبل عام ١٩٦٠ .

وكانت المرحلة التالية من مراحل كفاح جارسيا من أجل العيش هى انتقاله الى المكسيك عام ١٩٦١ ولكن ليشتغل هذه المرة فى مجال السينما والدعاية ، وهو مجال وان يكن أجلب للرزق الا أنه لم يشأ

أن ينأى به بأى حال عن التنكر لخصيصته الاصـيلة وهى الادب . فهو يفاجىء القراء فى موطنه الاصلى وفى موطنه المكتسب بنشر روايته الثالثة : « ساعة النحس » ، وهى التى نقدمها اليوم للقارىء العربى بالاسم الذى اخترناه لها من واقع أحداثها : « ليالى الحب والرعب » وبها نال الجائزة الوطنية الكولومبية للرواية .

وبعد سنوات قلائل من مراجعة النفس والعكوف على النقـد الذاتى لاعماله السابقة ، أسفر هذا كله عن تأليف رواية طالما اختمرت فكرتها فى ذهنه واعتملت فى وجدانه وهو بعد فى مستهل شـبابه وفى أول مسيرته الادبية الطويلة . وقد تفرغ لكتابتها زهاء عامين ، منصرفا عن كل شىء حتى عن شئون أسرته تماما الى الحد الذى جعله يعهد بها الى زوجته ، وكذلك لا يهل عام ١٩٦٥ الا وتصدر له رواية « مائة عام من العزلة » ، وسرعان ما أكسبته شهرة عالمية واعتبرت من الشوامخ الادبية المعاصرة حتى نفدت طبعتهـا الاولى سراعا فى أمريكا اللاتينية وحدها ونقلت الى أكثر اللغات العالمية . وكان طبيعيا أن تجاب له هذه الرواية اليسر المادى وتدرأ عنه المعاناة التى ظـل أكثر حياته يجاهد الفكاك من أثقالها والتى هى فى الواقع العدو رقم واحد للفنان المبدع .

وتنقضى فترة أخرى من حيـاة جبرييل جارسيا ماركيز لم يكن فيها مجدبا بل كان منصرفا الى مزيد من الابداع حفاظا على المستوى السامق الذى بلغـه ، فـاذا كان عام ١٩٧٨ نشر روايته : « خريف البطريرك » . وبعدها بثلاث سنوات صدرت روايته الاخيرة : « أحداث موت معلن عنه » عام ١٩٨١ ، وقد وزع من طبعتها الاولى أكثر من مليونى نسخة ، ولم تنقض أسابيع حتى صدرت طبعتها الثانية ، وبعد شهور قلائل ترجمت الى اثنتين وثلاثين لغة .

***

ومن هذا نرى أن جبرييل جارسيا ماركيز لم يظفر بجائزة نوبل عفوا وانما كانت جهوده الدائبة ومعاناته الشاقة هى التى أثمـرت هذا الحصاد الادبى الحافل الذى سما الى مصاف الآداب العالميـة بما قام عليه من منازع انسانية أصيلة واتجاهات فكرية مستقلة ، وبما نما اليه من فضح للقهر والظلم والفساد الاجتماعى والسـياسى والدعوة الى الانقضاض عليهـا ومقاومتها بكل السبل والذرائع حتى لا تبقى الانسانية مكبلة بأغلالها اشباعا لنزوات افراد أو مطـامع

حكومات ، ومن هنا دعوته الحارة التى ينادى بها فى كل انتاجه : وهى ان مصير الانسانية سيؤول حتما الى العدل والحرية بعد طــول القهر والاضطهاد فى ظل الانظمة الاجتماعية والسياسية التى يتقلب فيها الانسان سواء فى أمريكا اللاتينية أو فى كثير من اقطار العالم بأسره .

بل ان قرار منحه جائزة نوبل استند فيما استند اليه من ذلك الى اسلوبه الفذ الذى يجمع بين الواقعية والخيال . فالحقيقة أن لجبرييل جارسيا ماركيز نهجــا فريدا فى تدبيج رواياته وقصصه يتسم بالبراعة فى البناء والاسلوب . فالمتن محكم قوى الحبكة حتى وان يكن حادثا عرضيا أو مناسبة عابرة ، بيد انه يربط هذا كله برباط وثيق لا منفذ اليه ولا مأخذ عليه . والاسلوب هو البساطة المتناهية ولكن الحوار هو ألمع وألبق ما يحتذيه كاتب عندما يدور بين مختلف الشخوص من كافة النزعات ، واذا انت فى النهاية أمام عمل أدبى متكامل فريد فى مقوماته ، أو صورة فنية رائعة أستطاع فنان ملهم أن يخلق من ألوانها الفردية الجامده لوحة نابضة بالحياة والحيوية تستحوذ على الخيال وتبقى فى النفس أطول مدى . أما صراحتــه البتارة فى معالجة العلاقة بين الرجل والمرأة فلعل مردها الى التزامه كأديب صادق بتصوير شخوصه على طبائعها كنماذج بشرية تنضج بما ركب فيها من شتى الغــرائز الفطرية التى لا محيد للبشر عن التأثر بها اما انسياقا وراء شهوات النفس أو ارتداعا بنوازع الفضائل أو لعله يعمد الى تصوير هــذه الشخوص فى صورها المبتذلة لــكى تبوء منك فى النهاية بالاستنكار والذراية مقارنة بنقائضها من الصور الفاضلة المبرأة من الدنايا والاسفاف والتبذل .

***

وبعد ، فليس المقام مقام افاضة أكثر فى تقديم جبرييل جارسيا ماركيز الى القراء بعد أن عرفوه فى رواية « الضحية » ، ولسوف يزيدون به تعارفا بعد الرواية الحــالية ليكونوا أكثر شـــوقا الى الاستزادة من روائعه التى أشرنا اليها فى هذه العجالة ، والتى يسرنا أن نتحفه بترجمة أربع روايات أخرى منها باذن الله وتوفيقه فيمــا يلى من « روايات الهلال » ، والله المستعان .

محمود مسعود

الفصل الأول

جلس الاب انجيلو فى فراشه وراح يفرك عينيه بعظام يديه ، ثم أزاح « ناموسية » البعوض المطرزة ولبث جالسا فوق المرتبة العارية يفكر مدى الفترة الزمنية اللازمة لكى يستوعب انه لا يزال على قيد الحياة ولكى يتذكر تاريخ اليوم ومايقابله من التاريخ المطابق فى تقويم القديسين .. كان يوم الثلاثاء الرابع من شهر أكتوبر ، وقد غمغم لنفسه هامسا : يوم القديس فرنسيس الاسيزى ...

وما لبث أن ارتدى ملابسه دون أن يغتسل أو يصلى ... كان مبسوط الجسم مورد الوجه ، فى حركاته سكينة ودعة .. وبعد أن ارتدى ثوبه الكهنوتى رفع رتاج الباب المؤدى الى الحوش وفتحه ، فملأت خياشيمه رائحة المطر المختلط بذرات السنابل الطائرة ..

كانت غرفة النوم تتصل بالكنيسة عن طريق شرفة داخلية تحف بها أصص الزهور ويكسو أرضها قرميد مفكك بدأت تنمو فى فرجاته أعشاب أكتوبر .. وعندما دخل الى الكنيسة يمم من فوره شطر برج الناقوس دون أن يعرج على الساعة الكبرى ، بعد أن اطمأن بنظرة عابرة الى امتلاء زنبركاتها بما يكفى اسبوعا آخر .. وسرعان ماهاجمته أسراب البعوض ، فسحق بعضها فوق رقبته بضربة عنيفة ومسح يده فى حبل الناقوس .. وقد انتظر برهة حتى انبعثت دقات الساعة الكبرى مؤذنة بالخامسة صباحا ، وعلى الاثر لف حبل الناقوس حول معصمى يديه ، فتردد رنينه مدويا يدعو أهل البلدة الى قداس الصباح .. وعلى الرغم من أنه جاوز الحادية والستين من عمره وكان المجهود الذى يتطلبه دق الجرس كثير المشقة لديه ، الا انه كان يحرص دائما على اتمام نداء القداس بشخصه ، وكان يجد فى هذا مايقوى معنوياته ..

وفيما كانت الاجراس تدق دفعت ترينيداد التلميذة المترهبة باب الشارع ودخلت واتجهت راسا الى الركن الذى أعدت فيه مصائد الفئران ... فوجدت شيئا ادخل الاشمئزاز والفرح الى نفسها فى آن واحد : مذبحة صغيرة ...

فتحت المصيدة الاولى ، وأمسكت بالفأر الصغير من ذنبه بين ابهامها وسبابتها ، ثم طوحت به فى داخل علبة الورق المقوى .. وكان الاب انجيلو قد فتح توا الباب المؤدى الى الميدان ، فبادرته قائلة :

ـ صباح الخير يا أبتاه ...

لم يسعفه صوته بالرد لأول وهلة .. فان وحشة الميدان ومشهد أشجار اللوز الهاجعة فى المطر وجمود حركة البلدة فى فجر أكتوبر هذا الكالح ـ كل أولئك انبعث فى نفسه شعورا بالاحباط .. بيد انه عندما ألف صوت المطر واستطاع أن يسمع على البعد صوت مزمار باستور يتردد من أقصى الميدان جليا وشبه أثيرى ـ عندئذ فقط تفطن الى تحية ترينيداد ورد عليها بمثلها ... ثم قال لها :

ـ ان باستور لم يكن بين العازفين فى تجمعهم الليلى ...

فردت ترينيداد قائلة وهى تقترب بعلبة الفئران الميتة :

ـ لا ... كانوا كلهم يعزفون الجيتار ...

فقال الاب :

ـ انهم أمضوا حوالى ساعتين يعزفون لحنا تافها يقول مطلعه فيما أظن : « سوف يعلو البحر بدموعى ... » ! ..

فقالت :

ـ هذه أغنية باستور الجديدة ...

لم يتمالك الأب وهو واقف لدى الباب أن خامرته هزة انفعال طارئة .. فعلى مدار السنين الطوال كان يسمع عزف مزمار باستور على مبعدة مربعين سكنيين وهو يجلس صباح كل يوم فى الخامسة مستندا الى عش حمامه لممارسة العزف ... والواقع أن هذا كان هو التركيب الميكانيكي للبلدة الذى يدور بدقة وانضباط : أولا دقات الساعة الكبيرة الخمس ، ثم دقات الناقوس الاولى مؤذنة بقداس الصباح ، ومن بعدهما عزف باستور فى حوش داره على المزمار يطهر به جو الحوش المشبع بقذر الحمام ، فيضفى فيما حوله أنغاما شجية نورانية ...

وافاق الاب من تأملاته قائلا :

ـ الموسيقى جيدة ، لكن الكلام الغنائى تافه ...

وانثنى فى مكانه وهو يبتسم لما أبدى من تعليق ، وانتقل لاضاءة المذبح .. فتبعته ترينيداد .. كانت تلبس رداء طويلا أبيض ذا أكمام ضافية ، مع الوشاح الحريرى الازرق الذى يبين رتبتها ... وكانت

سوداء العينين مقرونة الحاجبين .. ومالبث القس أن قال لها :

ــ انهم طافوا فيما حولنا طوال الليل ... أعنى العازفين ..

فردت ترينيداد بانزعاج شديد وهى تهز الفئران فى العلبة :

ــ حصوصا عند دار « مارجوت راميريز » .. لكن فى الليلة الماضية كان هناك شيء آخر أحسن من عزف الجيتار ..

ــ وماذا كان ؟...

ــ « الملصقات الفاحشة » !..

وشفعت ردها بضحكة عصبية ...

***

على مبعدة ثلاثة بيوت كان « سيزار مونتيرو » يحلم بالفيلة .. لقد شاهدها فى دار السينما يوم الاحد .. وكان المطر قد نزل قبل نصف ساعة من نهاية الفيلم ، ولكن صور الفيلة عادت تدور فى الحلم ... وتحت وطأة الرعب الذى استولى على الاهلين وهم يفرون مذعورين أمام هجوم الفيلة ، تزحزح سيزار بكل جسده الضخم ملتصقا بحائط غرفة النوم الابيض ... فدفعته زوجته برفق دون أن يستيقظ أحدهما ، فما كان منه الا أن غمغم بكلمات مبهمة ، وارتد عائدا الى ضجعته الاولى .. وأخيرا استيقظ ... وفى تلك اللحظة كانت الدقة الثانية لناقوس القداس ...

كانت الغرفة ذات منافذ كبيرة محجوبة ، والنافذة المطلة على الميدان يعلوها ايضا ستار سميك تخالطه زهور صفراء ... وكان فوق الخوان الليلى الصغير راديو متوسط ومصباح وساعة ذات قرص مضيء ... وعلى الناحية الاخرى كان ثمة دولاب ملابس ضخم ذو مرايا ... وفيما كان « سيزار مونتيرو » يلبس حذاء الركوب ترامى الى سمعه عزف مزمار باستور ، وبدت له أربطة الحذاء الجلدية الخام متيبسة بالطين ، فأخذ يشدها بقوة بأصابع يده المطبقة التى كانت أشد خشونة من جلد الاربطة ... ثم انثنى الى المهماز يلتمسه ، بيد أنه لم يجده تحت الفراش ... فمضى يستكمل لباسه فى الظلام محاولا ألا يحدث أقل جلبة لكيلا يوقظ زوجته .. وبينما كان يزرر قميصه لفى نظرة على الساعة المضيئة ، ثم عاد الى البحث عن المهمازين تحت الفراش .. بحث عنهما أول الامر بيديه ، ثم جثا على اربع وأخذ ينبش تحت الفراش ... فاستيقظت زوجته ، وقالت :

ـ عما تبحث ؟..

ـ عن المهمازين ...

فردت قائلة :

ـ انهما معلقان خلف الدولاب .. انك وضعتهما بنفسك يوم الاحد ..

وأزاحت « ناموسية » البعوض واضاءت النور .. فنهض قائما وقد تملكه الخجل ... كان ضخم الجسم ، عريض المنكبين ، مكتنز الكتفين ، ولكن حركاته كانت طيعة مرنة ، حتى وهو لابس حذاء الركوب الثقيل .. وكان فى صحة عارمة ، ولم تبد عليه دلائل تشير الى سنه بوضوح ، ولكن جلد رقبته شف عن تجاوزه الخمسين .. وفى النهاية جلس على حافة الفراش لكى يضع مهمازيه ...

قالت له ، وهى تشعر بأن عظامها الموجعة قد امتصت رطوبة الليل :

ـ لا يزال المطر يسقط .. اننى أشعر وكأننى اسفنجة ..

كانت نحيلة عظمية ذات انف حاد ، وبدا كأنها لم تستيقظ تماما ، وحاولت أن تتبين المطر من خلال الستار ... أما سيزار مونتيرو فقد استكمل وضع المهمازين ، ونهض قائما وأخذ يذرع الارض مرات ، فكان البيت يرتج بقوة المهمازين ..

وقال لها أخيرا :

ان الجفوار « النمر الامريكى » يسمن فى أكتوبر ...

لكن زوجته ، التى كانت منتشية بعزف مزمار باستور ، لم تكن ملقية اليه بسمعها ... وعندما أقبلت عليه بنظرها من جديد كان يمشط شعره أمام مرايا دولاب الملابس وهو منفرج الساقين خافض الراس ، اذ كانت قامته أطول من المرايا ...

ولما رآها تتابع أغنية باستور بصوت خفيض قال لها :

ـ انهم كانوا يرددون هذه الاغنية طول الليل ..

فقالت :

ـ انها رائعة ...

وفكت شريطا من رأس السرير وضمت شعرها عند ظهر عنقها وغمغمت متنهدة مرددة مقطعا من الاغنية : « ... سوف أبقى فى أحلامك حتى الممات » ... بيد أنه لم يلتفت اليها ، وعمد الى درج فى الدولاب يضم الى جانب بعض الحلى ساعة نسائية وقلم حبر ،

فاخذ منه لفافة أوراق بنكنوت استخلص اربعا منها ورد الحافظة الى مكانها .. وأخيرا وضع فى جيبى قميصه ست رصاصات لبندقية صيد قصيرة ، وقال لها :

ـ اذا استمر سقوط المطر ، فلن أرجع يوم السبت ..

وعندما فتح الباب المؤدى الى الحوش توقف برهة فى المدخل يستنشق هواء أكتوبر الكثيف وعيناه تعتادان الظلمة .. وقد هم باغلاق الباب حين انبعث رنين جرس الساعة المنبهة فى غرفة النوم . فوثبت زوجته من الفراش بينما وقف هو مترددا ويده على الاكرة ، الى أن أبطلت رنين الجرس ... وعندئذ نظر اليها لاول مرة ، ساهما وقال :

ـ فى الليلة الماضية حلمت بالفيلة ...

وأخيرا أغلق الباب ومضى لاسراج البغل ..

واشتد هطول المطر قبل الدقة الثالثة لناقوس الكنيسة .. وهبت ريح سطحية انتزعت الاوراق الاخيرة العطنة لاشجار اللوز فى الميدان ... وانطفأت أنوار الشارع ، ولكن البيوت مازالت موصدة .. وساق سيزار مونتيرو البغل من تحته خلال المطبخ ، وصاح بزوجته دون أن يترجل لكى تأتيه بالمعطف الواقى من المطر .. وأنزل عن كتفه بندقية الصيد القصيرة المزدوجة وشدها أفقيا الى سيور السرج .. وعندئذ لاحت زوجته فى المطبخ بالمعطف الواقى ، وقالت له بغير يقين :

ـ انتظر حتى يتشكف الجو ...

فارتدى المعطف صامتا ، ثم اتجه بنظره الى الحوش قائلا :

ـ لن يتكشف الجو حتى شهر ديسمبر ...

فرافقته ، ونظرتها المحدقة متجهة شطر الطرف الآخر للشرفة .. وكان المطر يدق الصفائح الصدئة فوق السقف ، ولكنه مضى وهمز البغل ، واضطر ان يحنى راسه وهو فوق متنه ليتفادى الاصطدام بأعلى الباب ... حتى اذا خرج الى الحوش كانت القطرات المنحدرة من أفريز السقف تنهال على ظهره دافقة .. وعند الباب الامامى صاح دون أن يدير راسه :

ـ اراك يوم السبت ..

فردت بقولها :

ـ أراك يوم السبت ...

وكان الباب الوحيد المفتوح على الميدان هو باب الكنيسة .. وتطلع سيزار مونتيرو الى السماء ، فرآها مثقلة دانية .. فرسم علامة الصليب ثم همز البغل وجعله يدور مرات على قائمتيه الخلفيتين الى أن تحقق للحيوان موطىء آمن فوق التربة اللزجة ... وكان ذلك عندما وقع نظره على قصاصة الورق التى ألصقت بباب بيته ..

قرأ القصاصة دون أن يترجل .. وكان الماء قد أذاب الالوان ، بيد ان النص الذى كان مكتوبا بفرشاة بأحرف مطبعية خشنة كان مقروءا ... ومالبث سيزار مونتيرو أن قاد البغل الى الحائط ، وانتزع القصاصة ، ومزقها اربا ...

وبخفقة من اللجام جعل البغل يسير جنبا بما يكفى لساعات طويلة ... وخرج من الميدان مجتازا شارعا ضيقا متعرجا تحف به بيوت من طوب محروق بفعل حرارة الشمس فتحت أبوابها بعد أن طردت عنها أخريات النوم ، ورائحة القهوة تنفذ الى أنفه ...

على أنه بعد أن جاوز آخر البيوت وراءه مالبث أن أدار البغل على أعقابه ووجهه بنفس الخبب المتمهل ليعود الى الميدان ويتوقف أمام بيت باستور ... وهناك ترجل ، وحمل البندقية القصيرة وربط البغل الى الدعامة وهو يؤدى كل حركة بتوقيتها المحكم ...

لم يكن باب البيت موصدا ، ولكن كان مسندا عند قاعدته بصدفة بحرية ضخمة ... فدخل سيزار مونتيرو الى غرفة المعيشة الصغيرة القاتمة ... فسمع رنة حادة أعقبها سكون مترقب .. ومر فى طريقه بأربعة مقاعد صفت حول مائدة صغيرة يعلوها مفرش من الصوف وزهرية بها ورود صناعية .. وفى النهاية توقف أمام باب الحوش ، ورفع عن راسه غطاء المعطف الواقى ، وأزاح باللمس صمام الامان فى بندقية الصيد ، ثم نادى بصوت هادىء تكاد تشوبه المودة :

ــ باستور !..

لاح باستور فى اطار الباب وهو يفك فم المزمار ... كان فتى نحيلا فارعا بدا شاربه الوليد مقلما بمقص ... وعندما وقع نظره على سيزار مونتيرو وقد ثبت عقبيه على الارض والبندقية عند مستوى الوسط مصوبة اليه ، لم يتمالك أن فغر فاه ... لكنه لم يقل شيئا ... وانما سحب وجهه وابتسم ... فما كان من سيزار مونتيرو الا ان رسخ عقبيه فى الارض ، ثم حمل كعب البندقية عند اعلى الفخذ ، ثم شد على أسنانه ، ثم حرك الزناد ...

لقد ارتج البيت بصوت الانفجار ... ولم يعرف سيزار مونتيرو على وجه اليقين هل كان قبل الجلبة أو بعدها أن أبصر باستور يجر نفسه عند الجانب الآخر للباب بحركة دودية بين كوم من ريش الحمام الدامى ...

***

بدأ العمدة يستسلم النوم فى اللحظة التى انطلق فيها المقذوف النارى ...

لقــد أمضى ثلاث ليال بلا نوم وهــو فى عذاب وكرب بسبب ألم ضرسه ... وفى هذا الصباح ، عند الدقة الاولى لناقوس الكنيسة ، ابتلع القرص المسكن الثامن ... فزال عنه الالم ... وساعده وقع المطر على السقف المعدنى على الاستسلام للنوم ، وان ظل الضرس ينبض بلا ألم خلال النوم ...

وعندما سمع صوت المقذوف النارى استيقظ منتفضا من رقاده واختطف حزام الرصاص والمسدس اللذين كان يضعهما دائما فوق مقعد بجانب أرجوحة النوم ليكونا فى متناول يسراه .. ولكن نظرا لانه لم يستطع أن يسمع سوى جلبة سقوط المطر ، فقد بدا له أن ماسمعه كان لونا من الكابوس ، وعاد اليه الشعور بالالم ...

كان يشعر بحمى خفيفة .. ولاحظ وهو ينظر فى المرآة أن خــده مورم .. ففتح اناء صغيرا به فازلين بنعناع ودلك به الموضع الموجوع الذى كان متصلبا وغير حليق .. وفجأة سمع أصواتا على البعـد تسرى من خلال المطر .. فخرج الى الشرفة .. فرأى سكان الشارع يجرون شطر الميدان وبعضهم بلباس النوم .. ورفع صبى منهـم رأسه اليه ولوح بذراعيه صائحا دون أن يتوقف :

ــ سيزار مونتيرو قتل باستور !..

وفى الميدان كان سيزار مونتيرو يمشى وقد صوب بندقيته القصيرة الى الجمهور .. ولم يجد العمدة عناء فى التعرف عليه بنظرة خاطفة ... فأمسك مسدسه بيده اليسرى وتقدم الى وسط الميدان ... فأفسح له الناس الطريق .. ومن داخل الحانة خرج جندى بوليس ممسكا ببندقيته التى صوبها الى سيزار مونتيرو .. واذ ذاك قال له العمدة بصوت خفيض :

ــ لا تطلق النار يا حيوان .

وعلق مسدسه فى الحامل فوق منكبه واخذ البندقية من الجندى وتابع سيره الى وسط الميدان ، وصاح قائلا :

ـ يا سيزار مونتيرو ! .. اعطنى بندقيتك ! ..

لم يكن سيزار مونتيرو قد رأى العمـدة حتى تلك اللحظة ... واذا هو يثب لمواجهته .. فشدد العمـدة ملمس اصبعه على زناد البندقية . ولكنه لم يطلق النار ...

صاح سيزار مونتيرو :

ـ تعال خذ البندقية !..

كان العمدة ممسكا البندقيه بيده اليسرى واخذ يمسح جفنيـه باليمنى .. لقد راح يحسب كل خطوة واصبعه متصلب فوق الزناد وعيناه مركزتان على سيزار مونتيرو .. وفجأة توقف ، وتكلم بلهجة ودية قائلا :

ـ ارم بندقيتك على الارض ياسيزار .. لا ترتـكب حمـاقة اخرى !..

اخذ سيزار مونتيرو يتراجع ، وواصل العمدة تقدمه . واصبعه مشدود على الزناد .. ولم تترك فى جسده عضلة واحدة الى ان أدلى سيزار مونتير بندقيته ورماها على الارض .. وهنـا فقط رأى العمدة أنه لم يكن مرتديا سوى بنطلون البيجاما ، وان العرق كان يتفصد منه فى المطر ، وان ضرسه قد كف عن الوجع ...

فى خلال ذلك فتحت البيوت أبوابها .. وجاء جنـديا بوليس مسلحان بالبنادق يجريان الى وسط الميدان .. وتدفق الجمهـور من خلفهما ... فانثنى اليهم الجنديان وصاحا فيهم وهما يصوبان بندقيتيهما :

ـ الى الوراء ! ..

وصاح العمدة بصوت هادئ دون ان ينظر الى احد :

ـ اخلوا الميدان !..

تفرق الجمهور .. واقبل العمدة على سيزار مونتيرو يفتشـه دون ان يطلب اليه نزع معطفه الواقى ... فوجد اربع رصـاصات فى جيب قميصه ، ومدية مطـوية بمقبض عظمى فى جيب بنطلونه الخلفى .. وفى جيب آخر عثر على مفكرة ، وحلقة بها ثلاثة مفاتيح ، او اربع أوراق بنكنوت فئة مائة بيزو « ريال مكسيكى » ... وقد ترك سيزار مونتيرو عملية التفتيش تتم دون مقاومة ... وعنـدما

فرغ العمدة نادى الجنديين وأعطاهما الموجودات ، ثم عهد بسيزار اليهما آمرا :

ـ خذوه الى الدور الثانى فى المركز ... أنتم مسئولون عنه ..

أما سيزار مونتيرو فقد خلع معطفه الواقى وأعطاه لاحد الجنديين ثم سار بينهما دون مبالاة بالمطر أو حيرة الجمهور المتجمع فى الميدان ...

جعل العمدة يراقبه ساهما وهو يبتعد .. ومالبث أن استدار الى الجمع واومأ « يهشهم » كأنهم دجاج ، ثم صاح فيهم :

ـ انصراف ! ...

ووقف برهة يجفف وجهه بذراعه العارية ، ثم اجتاز الميدان ودلف الى دار باستور ...

كانت أم الفتى القتيل مرتمية على مقعد فى وسط جمع من النسوة يروحون عليها بصبر مؤثر .. فدفع العمدة امرأة منهن جانبا وهو يقول :

ـ اتركوا لها الهواء ! ..

فاتجهت اليه المرأة قائلة :

ـ انها خرجت للقداس منذ فترة قصيرة ..

فقال العمدة :

ـ لا بأس ... أما الآن فاتركوها تتنفس ...

كان باستور ملقى عند المدخل قرب عش الحمام ووجهه الى الارض فوق فراش من ريش ملطخ بالدم ، وسط رائحة قوية لروث الحمام ... وكان بعض الرجال يحاولون رفع الجثة عندما لاح العمدة فى المدخل ، فقال لهم :

ـ ارجعوا ...

فأعاد الرجال الجثة الى وضعها السالف بين الريش ، ثم انسحبوا صامتين .. وبعد أن تولى العمدة فحص الجثة أدارها فى مكانها ، فتناثر الزغب من حولها ... وفى مستوى الوسط كان الريش أكثر ، ملتصقا بالدم الذى كان لا يزال دافئا حيا .. فدفع الريش بيديه ، فألفى القميص ممزقا و « أبزيم » الحزام مكسورا .. ومن تحت القميص أبصر الاحشاء بارزة ... ذلك وقد توقف النزيف ..

وقال احد الرجال :

ـ كان السلاح بندقية الصيد المزدوجة ...

وفى النهاية عاد العمدة الى الوقوف ... فمسح الريش الدامى فى دعامة عش الحمام ومازال ينظر الى الجثة ، واختتم بمسح يده فى بنطلون بيجامته ، وقال للجمع :

ــ لا تحركوه من مكانه ...

فقال واحد منهم :

ــ سنتركه ممددا هكذا !..

فرد العمدة قائلا .

ــ لابد لنا من اعداد تصريح الدفن ..

ومن داخل البيت بدأ نواح النســـاء .. فشق العمدة طريقه بين الصراخ والعويل والروائح الخانقة التى بدأت تفسد جو الفرفة ... وعند باب الشارع التقى بالأب انجيل ، الذى هتف متحيرا :

ــ مات !..

فرد العمدة قائلا :

ــ ميتة خنزير ! ..

كانت البيوت حول الميدان قد فتحت أبوابها .. وتوقف المطر ، ولكن السحب الكثيفة كانت تحلق فوق السقوف دون أدنى فرجة بينها تطل منها الشمس .. واستوقف الاب انجيلو العمدة ممسكا بذراعه قائلا :

ــ ان سيزار مونتيرو رجل طيب .. لابد أن ماحدث كان نتيجة ارتباك ولبس ..

فقال العمدة متبرما :

ــ أنا أعرف هذا .. لا تقلق يا أبى ، لن يصيبه شىء .. ادخل البيت ، حيث هم فى حاجة الى وجودك ...

وابتعد مسرعا ، وأمر رجال البوليس برفع الحراسة .. فمـــا كان من الجمع الذى ظل حتى هذه الآونة مبعدا الا ان جرى أفراده مسرعين الى بيت باستور .. وذهب العمــدة الى الحانة حيث كان جندى فى انتظاره مع ملابس نظيفة ، هى زيه العسكرى برتبة ملازم أول ...

وفى الاحوال العادية لم يكن المشرب يفتح فى هذه الساعة .. أما فى هذا اليوم ، وقبل السابعة صباحا ، فقد كان مزدحما ... كان الرجال الجالسون أربعة أربعة حول الموائد أو عند المقصف يشربون القهوة ، ومعظمهم ما زالوا مرتدين سترات البيجاما و «الشبشب» ..

وخلع العمدة ملابسه أمام الجميع وجفف نفسه ببنطلون البيجاما ثم بدأ يرتدى زيه صامتا وهو يستمع الى شتى « التعليقـــات » ... وعندما غادر المكان كان على دراية تامة بتفاصيل الحادث ..

وصاح فى الجميع وهو لدى الباب :

ـ احذروا ... أى واحد يثير البلدة ضدى سيكون حســـابه عسيرا ! ..

وخرج الى الشارع المرصوف بالاحجار دون أن يسلم على أحد ، ولكنه كان مدركا لحالة الانفعال التى سادت البلدة ... كان فى سن الشباب ، مسترخى الحركات ، وتجلى فى كل خطوة يخطوها هدفه فى اشعار الجميع بوجوده وتوطيد سلطته ...

ولما كانت الساعة السابعة بدأت الزوارق الكبيرة التى تحمـــل السلع والمسافرين ثلاث مرات كل أسبوع تطلق صفاراتها وهى تبرح رصيف الميناء النهرى ، دون أن يهتم أحد بها مثلما كانوا يفعلون فى الايام الاخرى .. وعرج العمدة فى طريقه على « البواكى » حيث بدأ التجار الشرقيون يعرضون سلعهم ذات الالوان الزاهية .. وكـان الدكتور أوكتافيو جيرالدو الطبيب الذى لا يعرف أحد سنه والمجعد الشعر يراقب الزوارق وهى تبتعد فى النهر من باب مكتبه ، وكان هو أيضا يرتدى سترة البيجاما وينتعل « الشبشب » ... فلمـا رآه العمدة قال له :

ـ يادكتور ... البس ملابسك لكى تقوم بالكشف الطبى على الميت ...

نظر اليه الطبيب متشككا ، وقال وقد كشف عن صف من أسنان بيضاء متينة :

ـ اذن فنحن نقوم بمثل هذا الكشف الآن ؟!

ثم أردف قائلا :

ـ هذا تقدم عظيم ، فيما يظهر !..

حاول العمدة أن يبتسم ، ولكن حالت دون ذلك حساسية خده ... وغطى فمه بيده .. فسأله الطبيب :

ـ مالك ؟..

ـ ضرس لعين !..

وبدا الطبيب اميل الى التبسط فى الحديث ، ولكن العمدة كان مستعجلا .. فمضى فى طريقه .. وعند نهاية رصيف المرسى طرق

باب بيت كانت جدرانه من الاقصاب السميكة وسقفه من النخيل الذي تدلى حتى كاد يلامس مستوى الماء .. ففتحت له الباب امرأة ذات بشرة مخضرة وحامل في الشهر السابع وهي حافية .. فنحاها العمدة جانبا ودلف الى غرفة المعيشة القائمة ، ونادى :

ـ أيها القاضي !..

ظهر القاضي اركاديو في الباب الداخلي يجر قبقابه ... كان يلبس بنطلونا من الكتان بلا حزام وقد شد تحت السرة والجذع العاري ... فقال له العمدة :

ـ جهز تصريحا بدفن ميت ..

فصفر القاضي اركاديو في حيرة وقال :

ـ من أين جئت بهذه الافكار المبتكرة ؟ ..

تبعه العمدة الى داخل غرفة النوم ببطء وقال وهو يفتح النافذة لتنقية الهواء المثقل بالنوم :

ـ هذا موقف مختلف .. الافضل أن يتم كل شيء بنظام ودقة ..

ومسح التراب عن يديه في بنطلونه المكوى ، وسأل القاضي بدون أدنى بادرة للسخرية :

ـ هل تعرف ما هو تصريح الدفن ؟ ..

فأجاب القاضي :

ـ طبعا ...

فقال العمدة وهو يفحص يديه لدى النافذة ودون اخفاء لقصده :

ـ اطلب من سكرتيرك اعداد مايلزم من الاجراءات الكتابية ..

ثم التفت الى الفتاة باسطا كفيه حيث بدت آثار دماء ، وقال لها :

ـ أين يمكن ان أغسل ؟..

فأجابت الفتاة :

ـ في الخزان ...

فخرج الى الحوش ، بينما جاءت الفتاة من الصندوق الكبير بمنشفة نظيفة وضعت بها قطعة صابون معطر ولحقت بالعمدة في الوقت الذى كان فيه عائدا الى غرفة النوم ونفض يديه ، فقالت له :

ـ كنت آتية اليك بالصابون .

ـ هكذا احسن ...

واخذ المنشفة ومسح بدنه وهو ينظر الى القاضى اركاديو ساهما ، وقال له :

ـ انه كان مغطى بريش الحمام ..

وجلس على حافة الفراش واخذ يرتشف جرعات منتظمة من منجان قهوة سوداء ، وانتظر حتى اتم القاضى أركاديو ارتداء ملابسه ...

وتبعتهما الفتاة الى غرفة المعيشة ، وقالت للعمدة :

ـ ان هذا الورم لن يذهب حتى يخلع الضرس ...

فانتظر العمدة حتى دفع القاضى أركاديو الى الشارع ، ثم انثنى بنظرة الى الفتاة ولمس بطنها البارز بسبابته ، قائلا :

ـ وماذا عن هذا الورم ؟.. متى يذهب ؟..

فردت الفتاة قائلة :

ـ فى أى يوم منذ الآن ...

***

لم يقم الاب انجيلو بجولته المسائية المعتادة .. فبعد انتهاء الجنازة توقف للحديث فى بيت لدى طرف البلدة وبقى فيه حتى الاصيل .. وكان فى حال طيبة على الرغم من أن الامطار المستمرة كانت فى العادة تجلب له الشعور بالالم فى عموده الفقرى ... وعندما عاد الى بيته كانت أنوار الشارع قد أضيئت ...

كانت ترينيداد تسقى الزهور عند المدخل ... وما كاد يضىء مصباح غرفته حتى حفت به أسراب البعوض ... وقبل أن يغلق الباب ضخ رشاش المبيد الحشرى فى أرجاء الغرفة بقوة وهو يعطس بتأثير الرائحة النفاذة .. وما أن فرغ حتى كان العرق يتفصد منه ... ثم أبدل الرداء الكهنوتى الاسود بآخر أبيض كان يرتديه فى خلوته ، وذهب يدق ناقوس صلاة المساء ...

وعندما عاد الى الغرفة وضع مقلاة على النار وأخذ يقلى قطعة لحم مع شرائح بصل .. وبعد أن فرغ وضعها جميعا فى طبق كان به بعض الارز المتبقى من طعام الغداء ، ثم حمله الى المائدة وجلس يأكل متمهلا ...

على هذا النحو ظل يتناول طعامه مدى تسعة عشر عاما ، وحيدا فى غرفته التى جمعت بين غرفة المعيشة والمكتب ، دون أن يضيق يوما بوحدته ...

ثم جاءتهترينيداد تطلب نقودا لشراء زرنيخ .. فرفض القس للمرة الثالثة ، مبديا أن مصائد الفئران فيها الكفاية .. ولكن ترينيداد ألحت قائلة :

ــ الحكاية هى ان الفئران الصغرى تسرق الجبن ولا تقع فى المصائد ... وهذا هو السبب فى أن من الافضل وضع السم فى الجبن ...

اعترف القس فى دخيلته أن ترينيداد على حق ، ولكن قبل أن يتاح له الكلام ارتفع صوت مكبر الصوت من دار السينما عبر الشارع مدويا بموسيقى صاخبة ... فقال القس :

ــ هل هناك عرض هذه الليلة ...

ولما ردت ترينيداد بالايجاب قال :

ــ هل تعرفين اسم الفيلم ؟..

فأجابت ترينيداد :

ــ « طرزان والآلهة الخضراء » ... وهو نفس الفيلم الذى لم يتمكنوا من اتمام عرضه بسبب المطر .. هو فيلم مسموح به للجميع ...

فذهب الاب انجيل الى برج الناقوس وقرعه اثنتى عشرة مرة ببطء ... فدهشت ترينيداد ، وقالت وهى تلوح بيديها وقد لمعت عيناها اهتياجا :

ــ أنت مخطىء يا أبتاه ! .. هو فيلم مسموح به للجميع .. ثم تذكر أنك لم تدق الناقوس مرة يوم الاحد ! ..

فقال القس وهو يجفف العرق الذى سال فوق رقبته :

ــ لكن هذا فيه عدم مراعاة لشعور البلدة ...

وكرر هذه العبارة مرة ثانية ..

فهمت ترينيداد مقصده ، بينما عاد يقول :

ــ يكفى كل انسان مشهد الجنازة ... كل الرجال كانوا يتدافعون لحمل النعش ...

وصرف الفتاة لشأنها ثم أغلق الباب المطل على الميدان المهجور وأطفأ أنوار الكنيسة ... وفى عودته الى غرفة نومه لم يتمالك أن لطم جبينه حين تذكر أنه لم يعط ترينيداد النقود لشراء الزرنيخ .. بيد أنه نسى هذا الامر مرة ثانية قبل أن يصل الى الغرفة ..

وبعد فترة قصيرة جلس الى مكتبه وتأهب لاستكمال الرسالة

التى بدأ كتابتها فى الليلة الماضية .. بيد أنه لم يكد يمسك القلم حتى سمع طرقات ثلاثا على الباب ، فقال :

ـ ادخل ...

كان القادم مدير دار السينما ، وكانت ملامح وجهه تشف عن كرب عظيم أو خطب جلل .. وكان مرتديا بذلة من التيل الابيض وحذاء ملونا .. وعندما أومأ اليه الاب انجيلو أن يجلس فى المقعد الهزاز أخرج من جيبه منديلا بسطه بعناية ونفض المقعد ثم جلس منفرج الساقين .. وهنا فقط رأى الاب انجيلو ان الذى لمحه مدلى من حزام المدير لم يكن مسدسا ، بل بطارية ...

قال له القس :

ـ ما الذى يمكن أن أؤديه لك ؟..

فقال المدير بأنفاس متلاحقة :

ـ يا أبى .. سامحنى للتدخل فى شئونك .. لكن الذى حدث هذه الليلة لابد أن يكون نتيجة خطأ ..

أومأ القس برأسه ، وانتظر ..

فمضى المدير يقول :

ـ ان « طرزان والآلهة الخضراء » هو فيلم مصرح به للجميع .. وأنت نفسك وافقت على هذا يوم الاحد ..

حاول القس أن يقاطعه ، بيد أن المدير رفع يده اشارة الى أنه لم يتم كلامه بعد ، وقال :

ـ انى تقبلت مسألة دق الناقوس عند اللزوم ، لانه صحيح ان هناك أفلاما غير أخلاقية ... لكن هذا الفيلم ليس فيه ما يعيب .. وكان فى نيتنا أن نعرضه للاطفال فى حفلة الماتينيه ...

فأبدى له الاب انجيل أن الفيلم حقيقة لا يتناول نواحي أخلاقية كما تتبين من قائمة الافلام التى يتلقاها بالبريد كل شهر ، واستطرد قائلا :

ـ لكن عرض الفيلم هذا اليوم بالذات فيه عدم مراعاة للمشاعر بسبب حادث الوفاة الذى وقع فى البلدة .. هذا نفسه جانب من النواحي الاخلاقية ..

تطلع اليه المدير برهة ، ثم هتف قائلا :

ـ فى السنة الماضية قتل البوليس ذاته رجلا فى داخل السينما وحالما رفعوا الجثة استمر العرض كأن لم يحدث شىء !..

فقال القس :

ـ الموقف الآن مختلف .. العمدة تغير ...

فرد المدير مهتاجا :

ـ عندما تجرى الانتخابات مرة اخرى سيعود القتل من جديد . ولما كانت البلدة هى البلدة ، فنفس الشيء يحدث على الدوام ..

فقال القس :

ـ سوف نرى ..

راح المدير يتأمله بنظرة محزونة .. وعندما عاد الى الكلام وهو يهز قميصه لتهوية صدره ، بدت نبرات صوته تشف عن الاستعطاف .. قال :

ـ هو الفيلم الثالث المصرح به للجميع الذى عرضناه هذه السنة ... وفى يوم الاحد تركنا ثلاثة فصول منه لم نعرضها بسبب المطر وهناك ناس كثيرون يريدون أن يعرفوا كيف تكون نهايته ..

فقال القس :

ـ لقد تم دق الناقوس حاليا ..

تنهد المدير يائسا ... وانتظر وهو يدمن النظر الى وجه القس دون أن يفكر الا فى الحر المشتد فى غرفة المكتب .. وقال أخيرا :

ـ اذن فليس هناك شيء يمكن عمله ؟..

فهز الاب انجيل رأسه ... فما كان من المدير الا ان ضرب على ركبتيه ، ونهض قائلا :

ـ لا بأس .. ما باليد حيلة ..

وطوى المنديل مرة أخرى ، وجفف العرق عن رقبته ، واجال نظره فى غرفة المكتب بحرارة ، قائلا :

ـ هذا المكان جهنم بعينها !..

رافقه القس الى الباب .. وبعد أن وضع الزلاج جلس لاتمام الرسالة .. ولم تمض فترة قصيرة حتى توقفت الموسيقى الصادرة من الميكروفون .. وأعقبها صوت يقول : « نود ان نذيع الى زبائننا الكرام أن حفلة العرض لهذه الليلة قد ألغيت لان هذه الدار ترغب هى أيضا فى مشاركة البلدة أحزانها » ...

لم يتمالك الأب انجيل من الابتسام ، بعد ان عرف صوت مدير السينما ..

واشتدت الحرارة ، ومضى الاب انجيلو فى استكمال رسالته وهو

يتوقف بين فينة واخرى لتجفيف عرقه .. وما كاد يذيل الرسالة بامضائه حتى هطل المطر بفزارة دون سابق انذار .. وقبـــل ان يطوى الرسالة ويضعها في المظروف اضاف الحاشية الآتية :

« عاد المطر اشد مما كان .. ومع هذا المطر وماشرحته من امور في الرسالة ، ففى ظنى اننا مقباون على ايام عصيبة » ..

الفصل الثانى

بزغ فجر يوم الجمعة حارا جافا بعد ليلة حب حافلة أمضاها القاضى اركاديو مع زوجته ، انتهت بوقوعهما على الارض متخبطين فى طيات « الناموسية » ..

ومهما يكن فقد تخلصا منها ونهضا متجردين تماما .. فذهب القاضى اركاديو الى صندوق الملابس لارتداء مايستره ... ولما رجع كانت زوجته قد ارتدت ملابسها واخذت فى اعادة « الناموسية » الى مكانها .. وقد مر بجانبها دون أن ينظر اليها ، وجلس على الجانب الآخر للفراش يلبس حذاءه وهو لايزال متثاقل الانفاس .. اما هى فقد تبعته واستندت على ذراعه ببطنها المتضخمة وأخذت تلتمس أذنه بأسنانها ، فدفعها عنه بلطف قائلا :

ـ دعينى وشأنى ! ..

فأطلقت ضحكة تشف عن فرط الصحة .. ومرة أخرى تبعت زوجها الى الناحية الاخرى للغرفة وهى تدغدغه ... فوثب مبتعدا وابعد يديها عنه ... وأخيرا تركته وهى تضحك من جديد ... ولكن فجأة تملكها الجد وصرخت :

ـ أواه ياربى !..

فقال لها :

ـ ماذا جرى ؟..

فقالت صارخة :

ـ تركنا الباب مفتوحا ! .. هل يعد هذا قلة حياء ؟! ..

وذهبت الى الحمام وهى تضج بالضحك ..

لم ينتظر القاضى اركاديو لكى ينظر ... وخرج الى الشارع وقد ترطب فمه بنعناع معجون الاسنان ... كانت الشمس ساطعة ... وجلس أصحاب الحوانيت الشرقيون بجانب سلعهم يتأملون النهر الساكن ... ولما مر بمكتب الدكتور جيرالدو حك بظفره ستار الباب ونادى دون أن يتوقف .

ـ يادكتور !.. ماهو أحسن علاج للصداع ؟..

فرد الطبيب من الداخل قائلا :

ـ هو ألا يكون الانسان قد سكر في الليلة الماضية !..

وعند رصيف المرسى كانت جماعة من النسوة يتبادلن الحديث ، بأصوات مرتفعة عن مضمون « الملصق الفاحش » الجديد الذى علق فى الليلة الماضية ... ذلك أنه مع طلوع النهار صحوا وغير ممطر فان النسوة اللاتي ذهبن الى قداس الساعة الخامسة قرأن فى الطريق هذه القصاصة ، والنتيجة ان كل البلدة عرفت بأمرها ..

ومهما يكن فان القاضى أركاديو لم يتوقف ، وألفى نفسه يقاد الى البار كما يقاد الثور بحلقة في أنفه ... وهناك طلب بيرة مثلجة وقرص اسبيرين .. وكانت الساعة قد دقت مؤذنة بالتاسعة ، ولكن البار كان مليئا اذ ذاك ، حتى قال القاضى اركاديو لنفسه :

ـ ان البلدة كلها مصابة بالصداع !..

وحمل الزجاجة الى مائدة جلس حولها ثلاثة أشخاص بدا أنهم متحيرون وهم يشربون أكوابهم ... فجلس فى المقعد الخالى وقال :

ـ ألا تزال هذه المشكلة مستمرة ؟ ..

ـ هناك أربعة ملصقات وجدت هذا الصباح ...

وقال أحد الرجال :

ـ ان القصاصة التى قرأها كل انسان كانت عند راكيل كونتريراس ...

ابتلع القاضى اركاديو قرص الاسبيرين وشرب الحبة من الزجاجة ... كانت الجرعة الاولى غير سائغة ، ولكن معدته مالبثت أن اعتادت واخذ يشعر بالانتعاش ، فقال :

ـ وماذا كان فى القصاصة ؟..

فأجاب الرجل :

ـ هذر ... قالت القصاصة أن الرحلات التى قامت بها راكيل هذه السنة لم تكن عن اصلاح طاقم أسنانها كما قالت ، وانما كانت لاجراء عملية اجهاض ...

فقال القاضى اركاديو :

ـ لم يكونوا بحاجة الى تكبد مشقة وضع « ملصق فاحش » ... فكل انسان كان يطوف هنا وهناك بهذا الكلام ...

ولما خرج القاضى اركاديو توجه الى دار المحكمة مباشرة .... فاستقبله سكرتيره العجوز الاعجف ، الذى كان منهمكا فى نزع

ريش دجاجة مذبوحة ، بنظرة غير مصدقة من فوق حافة نظارته ، وهتف قائلا :

ـ لمن ننسب الفضل فى هذه المعجزة ؟..

فرد القاضى قائلا :

ـ لابد لنا من ايجاد حل لهذه المشكلة ..

فخرج السكرتير الى الحوش وهو يجرجر « الشبشب » ، وناول الدجاجة بنصف الريش الى طاهى الفندق من فوق الحائط .. كان يوما مشهود حقا ... فلأول مرة منذ أن تقلد القاضى اركاديو وظيفته قبل احد عشر شهرا ، هاهو ذا يجلس الى مكتبه ...

كانت الغرفة مقسمة قسمين بسياج خشبى .. فى القسم الخارجى قامت منصة من الخشب ايضا ، تحت صورة « العدالة » معصوبة العينين وبيدها ميزان .. وفى القسم الداخلى وضع مكتبان عتيقان متواجهين ، وبعض رفوف تعلوها كتب تربة ، ثم آلة للكتابة ... وعلى الجدار الملاصق لمكتب القاضى علق صليب من نحاس ... اما الجدار المواجه فقد علاه اطار ضم صورة مطبوعة بالحجر لرجل سمين أصلع متشح بالوشاح الرئاسى ، ومن تحت الصورة نقش مذهب بهذه العبارة : « السلام ، والعدالة » ... وكانت الصورة هى الشىء الجديد الوحيد فى المكتب ..

ولم يلبث السكرتير أن لف منديلا حول وجهه وبدأ ينظف المكتبين بممسحة ، قائلا للقاضى :

ـ اذا لم تغط انفك فسوف تأخذك نوبة سعال ...

بيد أن القاضى اركاديو لم يعمل بالنصيحة ، بل مال الى الخلف فى الكرسى الدائر وهو يبسط ساقيه لاختبار الزنبركات ، قائلا :

ـ هل تتفكك ؟..

فأجاب السكرتير سلبا برأسه ، واضاف قائلا :

ـ عندما قتلوا القاضى فيتيلا ، انكسرت الزنبركات ، لكنهم اصلحوها بعد ذلك ...

ثم مضى يقول دون أن يرفع المنديل :

ـ ان العمدة ذاته أمر باصلاح الكرسى عندما تغيرت الحكومة وبدأ محققون خاصون يجيئون من كافة الجهات ...

فقال القاضى :

ـ ان العمدة يريد أن تقوم هذه المحكمة بمهامها ..

وفتح الدرج الاوسط واخرج منه مجموعة من المفاتيح وأنشأ يفتح الادراج الاخرى واحدا بعد الآخر ... كانت مليئة بالاوراق ... فأخذ يفحصها سطحيا لكى يتأكد أنه ليس بينها مايسترعى اهتمامه ، ومالبث أن أغلق الادراج وعكف على ترتيب أدوات المكتب وهى زجاجة حبر أحمر واخرى أزرق ، وقلم حبر لكل زجاجة ... ولكن الحبر جف فى كلتيهما ..

قال له السكرتير :

ــ ان العمدة يحيك ...

أخذ القاضى وهو يتأرجح فى الكرسى الدائر يتابعه بنظرة ساهمة وهو ينظف الحاجز ... أما السكرتير فقد راح يتأمله طويلا كأنما يريد ألا ينسى قط صورته فى هذا الوضع ، وفى هذه اللحظة ، ثم قال مسددا اليه اصبعه :

ــ فى نفس هذه الحالة التى انت عليها الآلة ، كان القاضى فيتيلا جالسا ، عندما اطلقوا عليه النار ...

لمس القاضى عروقه النافدة على صدغيه ، شاعرا بأن الصداع بدأ يعاوده ...

فاستطرد السكرتير مشيرا الى الآلة الكاتبة وهو ينتقل الى الجانب الاخر للحاجز ، قائلا :

ــ وأنا كنت هناك ...

واستند على الحاجز دون ان يقطع حكايته ، وبيده المسحة يسددها الى القاضى أركاديو مثل بندقيته ، حتى كان أشبه بقاطع طريق فى فيلم لرعاة البقر .. وتابع يقول :

ــ وقف رجال البوليس الثلاثة هكذا .. وما أن لمحهم القاضى فيتيلا حتى رفع يديه وقال ببطء شديد : « لا تقتلونى !.. » .. ولكن بعد لحظة خاطفة كان الكرسى فى ناحية ، وهو فى الناحية الاخرى مجندلا بالرصاص !..

اعتصر القاضى أركاديو جمجمته بيديه .. فقد أحس بنبض شديد فى مخه .. وما لبث السكرتير أن رفع القناع عن وجهه وعلق المسحة خلف الباب ، ومضى يقول :

ــ وكل هذا لانه قال وهو سكران انه جاء الى هنا لضمان نزاهة الانتخابات ...

ظل السكرتير فترة معلقا فى وضعه ذاك ، متفرسا فى القاضى

اركاديو ، الذى تكوم فوق المكتب ويداه فوق معدته .. فقال له السكرتير :

ـ هل تشعر بتعب ؟..

فرد القاضى بالايجاب ، وحدثه عما كان فى الليلة الماضية ، ثم طلب منه أن يذهب الى البار ويأتى بقرص اسبيرين وزجاجتى بيرة مثلجتين .. وبعد أن شرب الزجاجة الاولى لم يعد يخالجه أدنى أثر لوخز الضمير أو الشعور بالتأثم ... وغدا صافى المزاج ...

ثم جلس السكرتير الى الآلة الكاتبة وقال :

ـ ماذا نحن فاعلون الان ؟..

فرد القاضى قائلا :

ـ لا شيء ...

ـ اذا سمحت لى اذن ، فاننى سأذهب الى ماريا وأساعدها فى نتف ريش الدجاج ...

لكن القاضى كان ضد هذا ، اذ قال :

ـ هذا مقر العدالة وليس مكان نتف ريش الدجاج ...

وأجال نظره فى مرءوسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه فى لون من الرثاء ، وأضاف قائلا :

ـ وفضلا عن هذا ، فيجب أن تتخلص من هذا « الشبشب » وتحضر الى المكتب بالحذاء ...

وتزايدت شدة الحر مع اقتراب الظهيرة .. وما أن دقت الساعة الثانية عشرة حتى كان القاضى اركاديو قد استهلك « دستة » أكواب جعة ... وأخذت الذكريات تطفو فى ذهنه .. وأنشأ يتحدث بلهجة حالمة عن ماض خلا من أسباب الحرمان ، كان يستمتع فيه أيام الآحاد بالبحر والمغامرات الغرامية مع النساء المولدات ، وفى هذا قال : « هكذا كانت الحياة ، ذات النعيم والمتع ! .. » .. وكان السكرتير ينصت اليه مومئا برأسه تأييدا ...

وعندما دقت الساعة الواحدة أبدى السكرتير علائم نفاد الصبر ، قائلا :

ـ ان الحساء على وشك أن يبرد ...

فلم يشأ القاضى أن يدعه يقوم ، قائلا :

ـ ان الانسان لا يصادف دائما رجلا مثلك ذا موهبة فى بلدة كهذه البلدة ...

فشكره السكرتير وقد أضناه الحر وجعل يتململ فى مقعده ... وكان يوم الجمعة هذا يبدو وكأنه بلا نهاية ... ومن تحت الواح السقف الملتهبة المتقدة مضى الرجلان يتبادلان الحديث نصف ساعة آخر بينما كانت البلدة تكاد تنصهر بالحرارة وهى مقبلة على طهى طعامها ... ومالبث السكرتير وهو على شفا الاعياء أن أشار الى موضوع الملصقات « الفاحشة » ، فهز القاضى اركاديو منكبيه قائلا بنفس الاسلوب المعتاد لدى الجميع :

ـ انت ايضا تسير وراء الشائعات المخبولة ؟..

لكن السكرتير لم تكن لديه أية رغبة لمواصلة الحديث بعد أن أعياه الجوع والاختناق ، بيد أنه لم يعتبر ان مسألة الملصقات الفاحشة هذرا وتفاهة ، وقال :

ـ هانحن قد شهدنا الآن أول حادث موت ... واذا استمرت الامور تسير على هذا المنوال فستكون أيامنا القادمة عصيبة ..

وراح يحكى قصة بلدة محيت من الوجود فى سبعة أيام بسبب « الملصقات الفاحشة » ... فقد انتهى سكانها بقتل بعضهم البعض ... والباقون منهم على قيد الحياة نبشوا قبور موتاهم وأخرجوا عظامهم وقذفوا بها بعيدا جدا لكى يتأكدوا أنهم لن يعودوا اليهم ...

اصغى القاضى اليه متفكها وقد بدا له أن سكرتيره من عشاق قصص الرعب الخيالية ... وقال له :

ـ هذه الحكاية تشبه القصص البوليسية !.. وحلها سهل !...

غير ان السكرتير قال مغتاظا :

ـ لم يحدث قط منذ أن كانت الدنيا هى الدنيا ان احدا استطاع حل هذا اللغز ومعرفة من هو صاحب هذه « الملصقات الفاحشة » !..

فقال القاضى :

ـ اراهن اننى سأكتشف أمره ...

ـ وأنا قبلت الرهان !...

***

كانت « ربيكا آسيز » تكاد تختنق فى غرفة النوم الحارة فى البيت المواجه وقد غاص رأسها فى الوسادة وهى تحاول محاولة مستحيلة أن تنام ساعة القيلولة تلك .. وكانت تضع على صدغيها أوراق اشجار مدخنة ...

وقالت مخاطبة زوجها :

ـ روبرتو ... اذا لم تفتح النافذة فاننا سنموت فى هذا الحر ..

ففتح روبرتو آسيز النافذة فى اللحظة التى كان فيهـــا القـاضى اركادبو يغادر مكتبه ..

ـ حاولى أن تنامى ..

قال روبرتو هذا للمرأة المفرطة الصحة التى تمددت فى الفـراش مفتوحة الذراعين تحت ظلة الحرير الوردية الوشى وهى متجردة الا من جلباب نوم من النايلون .. واضاف قائلا :

ـ أعدك أننى لن أتذكر أى شىء مرة ثانية ...

فتنهدت ...

ان روبرتو آسيز ، الذى امضى ليلة يذرع أرض غرفة النوم وهو يشعل سيجارة من عقب سيجارة أخرى عاجزا عن النوم ـ كان على وشك ان يقبض على صاحب « الملصقات الفاحشة » فى الفجر ... فقد سمع حفيف الورق أمام بيته ، وصوت اليدين المتكرر فى محاولة لالصاق القصاصة على الحائط ... لكنه لم يتأكد الا بعد فـوات الاوان ، وكانت القصاصة قد الصقت ... وعندما فتح النافذة كان الميدان مهجورا ...

ومنذ تلك اللحظة وحتى الساعة الثانية بعد الظهر ، عندما وعـد زوجته أنه لن يتذكر القصاصة الفاحشة مرة أخرى ـ اسـتعانت بكل الوان الاقناع محاولة تهدئته ... وفى النهاية اقترحت عليه حلا مستميتا كبرهان حاسم على براءتها : فقد عرضت عليه أن تعترف أمام الاب انجيل بصوت مسموع وفى حضور زوجها ... وكان مجرد تقديم هذا العرض الحافل بالمذلة والهوان كافيا ... وعلى الرغم مما كان فيه من بلبلة وحيرة فانه لم يجسر على القيام بالخطوة التالية ، وكان لابد له من التسليم ...

وقالت له دون أن تفتح عينيها :

ـ من الافضل دائما مناقشة الامور بصراحة .. كانت تكون كارثة لو ظلت اعصابك مشدودة وصدرك منطويا على مابه ...

واغلق الباب بالرتاج عند خروجه ... وفى أرجاء البيت الفسيح الذى اغلقت منافذه تماما ، سمع أزيز مروحة أمه الكهربائيـة وهى مستسلمة لنوم القيلولة فى الدار الملاصقة ... وقد صب لنفسـه

كوبا من عصير الليمون من الثلاجة ، تحت بصر الطاهية الزنجيـــة الناعسة ...

وسألته المرأة ان كان يريد بعض الغداء ... فدفع غطاء اناء الطهى ... فرأى سلحفاة بحرية كاملة تطفو بزعانفها فى المـاء المغلى ... ولاول مرة لم تأخذه رعدة لفكرة القاء الحيوان حيا فى الاناء ، وأن قلبه سيظل يخفق عندما يحملونه مقطعا الى المائدة ..

قال لها وهو يغطى الاناء :

ـ لست جائعا ...

واضاف قائلا وهو لدى الباب :

ـ ان سيدتك لن تتناول الغداء هى أيضا .. فعندها صداع طول اليوم ..

كان البيتان متصلين بمدخل ذى أرضية مرصوفة ببلاط أخضر ، ومنه يستطيع المرء أن يرى اسلاك عشة الدجاج الكبيرة فى الحـوش الخلفى المشترك .. وفى جانب المدخل الخاص ببيت أمه كان ثمـة أقفاص طيور عديدة معلقة فى أفريز السقف ، وأصص أزهار كثيرة مليئة بالورود الملونة ..

وعندما اقترب من المقعد المستطيل الذى تمددت عليه ابنتـــه البالغة أحد عشر عاما لتأخذ قسطها من القيلولة ، حيته الصبية فى شىء من الضيق .. فقال لها بصوت خفيض :

ـ الوقت يقترب من الثالثة .. حاولى أن تتابعى كل شىء ..

فقالت الصبية :

ـ اننى حلمت بقطعة من زجاج .

فلم يتمالك ان عرته رعدة خفيفة ، وقال لها :

ـ مادا كان شكلها ؟..

فردت الصبية وهى تحاول تصوير حيوان الحلم بيديها :

ـ كلها من زجاج ... مثل طائر زجاجى .. لكنها قطة ..

تملكته الحيرة حتى لم يعرف جوابا .. وقال لها أخيرا :

ـ انس هذا الحلم .. انه لا يستحق الاهتمام ..

وفى هذه اللحظة أبصر أمه عند باب غرفة نومها . فوجد فى هذا مخلصا .. وقال لامه :

ـ أراك الآن بخير ...

فردت الارملة بمرارة :

ـ كل يوم اشعر بتحسن ...
وحرجت الى المدخل لتغيير الماء فى أقفاص الطيور ...
ارتمى روبرتو آسيز فى المقعد المستطيل الذى نامت عليه ابنته .. وشبك يديه خلف عنقه واخذ يراقب بعينيه الذابلتين المرأة البارزة العظام المتشحة بالسواد التى راحت تناجى الطيور بصوت خافت .. وجعلت الطيور ترفرف فى الماء الطازج ناثرة رشاشه على وجه المرأة بخفق اجنحتها وهى سعيدة ...
وبعد أن فرغت الام من الاقفاص أقبلت عليه قائلة :
ـ كانت هناك أعمال تنتظرك فى الغابات ..
فقال لها :
ـ لم اذهب .. كانت عندى أعمال هنا ..
ـ لن تستطيع الآن أن تذهب الى يوم الاثنين ...
أيدها بنظرة من عينيه ...
ولم تلبث الارملة آسيز أن أومأت لولدها ، فتبعها الى غرفة نومها الرحبة حيث كانت المروحة الكهربائية دائرة ... فتهالكت فى مقعد هزاز عتيق بجانب المروحة بحالة تشف عن اعياء بالغ ... وتمدد آسيز على السرير الفاخر .. فقالت له الارملة :
ـ كيف أحوالك ؟ ..
فسألها بدوره :
ـ هل تصدقين مايقوله الناس ؟..
فأجابت الارملة :
ـ فى سنى هذه لابد للانسان أن يصدق كل شىء ...
ثم سألته متراخية :
ـ وما الذى يقولونه ؟..
ـ يقولون أن ايزابيل ليست ابنتى ...
أخذت الارملة تهز الكرسى متباطئة ، ثم قالت :
ـ ان لها انف عائلة آسيز ...
وبعد تأمل يسير قالت بجزع :
ـ من يقول هذا ؟ ..
فعض روبرتو آسيز على اظافره قائلا :
ـ انهم وضعوا ملصقا فاحشا ...

عندئذ فقط أدركت الارملة أن الظلال القائمة تحت عينى ولدها لم يكن نتيجة السهر الطويل ... وقالت :

ـ ان الملصقات الفاحشة ليست هى الناس ...

فقال روبرتو آسيز :

ـ ولكنها لا تذكر الا مايقوله الناس فعلا .

مهما يكن فانها كانت تعرف كل ماكانت تقوله البلدة عن أسرتها على مدار السنين .. ففى بيت كبير مثل بيتها ، ملىء بالخـــدم والابناء والاحفاد ، كان من المستحيل على المرء أن يحبس نفسه فى غرفة نومه دون أن تتسرب أقاويل الشارع واشاعاته حتى الى هذا الملاذ ... ويبدو أن ال آسيز العتاة ، أولئك الذين ساهموا فى انشاء البلدة عندما لم يكونوا أكثر من ورعاة خنازير ـ كانت تجرى فى عروقهم دماء تجتذب الاقاويل والشائعات ...

قالت له الام :

ـ ان كل ما يقولونه غير صحيح ، حتى لو عرفه أحد الناس ...

فقال لها :

ـ كل انسان يعرف أن روزاريو مونتيرو كانت عشيقة باستور .. وأن أغنيته الاخيرة كانت مهداة لها ...

فردت الارملة قائلة :

ـ هكذا قال كل انسان ، لكن مامن احد عرف على وجه اليقين .. ومن ناحية اخرى فالمعروف الآن أن الاغنية كانت من أجل مارجوت راميريز ... فقد اتفق الاثنان على الزواج ، ولم يعرف هذا ســوى الاثنين وأم باستور .. وكان من الخير لو أنهم لم يبالغوا فى كتمان السر الوحيد الذى امكن كتمانه فى هذه البلدة وابقاؤه طى الخفاء !..

فنظر روبرتو آسيز الى أمه نظرة درامية وقال :

ـ جاءت لحظة هذا الصباح خيل الى فيها أننى سألقى حتفى ..

بدا أن الارملة لم تتأثر ، وقالت :

ـ ان ال آسيز قوم غيورون ... كانت هذه هى المصيبة الكبرى فى هذه الاسرة ...

ظلا صامتين فترة طويلة ... وكانت الساعة قد شارفت الرابعة وبدأت الحرارة تنخفض ... وعندما أوقف روبرتو آسيز المروحة كان أفراد البيت جميعا قد بدأوا يستيقظون ، وامتلأ البيت بأصوات نسائية وصدح الطيور ...

وقالت له الارملة :

ـ ناولنى الزجاجة الموجودة على الطاولة الليلية ...

وتناولت حبتين ، وردت الزجاجة الى ولدها قائلة :

ـ خذ حبتين .. سوف يساعدانك على النوم ..

فتناول الحبتين بالماء الذى بقى فى كوب أمه ، وأسند رأسه الى الوسادة ...

تنهدت الارملة ... وأخلدت الى الصمت والتأمل .. وكعادتها فى تعميم الكلام عن البلدة كلها كلما فكرت فى الاسر المعدودة التى كانت تتألف منها طبقتها ، قالت :

ـ ان أسوأ شيء فى احوال هذه البلدة هو أن النساء لابد لهن من التزام البيوت وحدات ، بينما يذهب الرجال الى الغابات ..

وبدأ روبرتو آسيز يستسلم للنوم .. وجعلت الارملة تتأمل ذقنه غير الحليقة وأنفه الطويل ذا الفضاريف البارزة ، وسرعان ما تذكرت زوجها المتوفى .. ان « أدالبرتو آسيز » أيضا قد عرف اليـــأس والاحباط فى حياته .. كان ماردا من رجال الغابات .. وقد قيل عنه أنه فى نفس غرفة النوم هذه قد قتل رجلا وجده مضاجعا زوجته ، وأنه دفنه خفية فى الحوش ... أما الحقيقة فكانت بخلاف ذلك .. ان « أدالبرتو آسيز » قد قتل ببندقية الصيد قردا ضبطه معلقـا بالدعامة الخارجية لباب غرفة النوم وهو يكاد يلتهم زوجته بنظراته الحيوانية عنـدما كانت تغير ملابسها .. وقد توفى الرجل بعـد ذلك بأربعين سنة دون أن تسنح له الفرصة لتصحيح هذه الفرية ..

***

صعد الاب انجيلو الدرجات المنحدرة فى السلم المكشوف للمركز .. ولما وصل الى الدور الثانى واجتاز المشي وجد عند نهايته عن كثب من البنادق وأحزمة الرصاص المعلقة فوق الحائط أحد جنود البوليس مستلقيا على فراش عسكرى يقرأ ووجهه الى أعلى ، وكان مستغرقا فى القراءة حتى لم يفطن الى وجود القس الا بعد أن حياه ... فطوى المجلة واعتدل فوق الفراش ..

قال له الاب انجيلو :

ـ ماذا تقرأ ؟ ...

ـ « تيرى والقراصنة » ...

أثنى القس بنظره الى الزنزانات الثلاث المبنية بالاسمنت المسلح

والتى لا نوافذ لها وكانت موصدة بقضبان حديدية غليظة .. وعند الزنزانة الوسطى وجد جندنا آخر نائما « بالشورت » فى أرجوحة ... أما الزنزانتان الاخريان فكانتا خاليتين ... ولما سأل الاب انجيلو عن سيزار مونتيرو أومأ جندى البوليس برأسه شطر باب مغلق قائلا :

ـ هو هنا فى الداخل .. انها غرفة القائد .

ـ هل يمكن أن أكلمه ؟ ..

فرد الجندى قائلا :

ـ ممنوع الاتصال به ...

لم يصر الاب انجيلو ... وسأل ان كان السجين بخير ... فأجاب الجندى بأنه أعطى أحسن غرفة فى الثكنات ، بها ضوء كاف وماء جار ، غير أنه أمضى أربعا وعشرين ساعة دون أن يأكل ... فقد رفض الطعام الذى أمر العمدة باحضاره له من الفندق ...

فقال القس :

ـ كان الواجب أن يحضروا له طعاما من بيته ..

ـ انه لايريد أن يزعجوا زوجته ...

فغمغم القس وكأنما يخاطب نفسه :

ـ سأتكلم عن هذا كله مع العمدة ...

وهم أن يتجه الى نهاية المشى ، حيث شيد العمدة لنفسه مكتبا مدرعا ... فقال الجندى :

ـ انه ليس فى المكتب ... هو معتكف فى البيت منذ يومين بسبب وجع ضرسه ...

ذهب الاب انجيلو لزيارته .. فوجده منكفئا فى الارجوحة ، وبجانبه كرسى واناء به ماء مالح ، ولفافة من الاقراص المسكنة للألم ، وحزام الرصاص والمسدس ... وكان خده لايزال مورما ..

جاء الاب انجيلو بمقعد أدناه من الارجوحة ، وقال له :

ـ اخلع الضرس ...

بصق العمدة الماء المالح من فمه فى حوض قريب ، وقال وما زال رأسه مائلا فوق الحوض :

ـ من السهل أن تقول هذا ...

فهم الاب أنجيلو مقصده ، وقال بصوت خافت :

ـ اذا فوضتنى ، فسأكلم طبيب الاسنان ...

وتنفس بعمق ، واجترأ أن يقول :
ـ انه رجل يفهم ...
فقال العمدة :
ـ مثل بغل ... لو أراد الانسان لهشمه بالرصاص ، والنتيجة أن يجد الانسان نفسه عند النقطة التى بدأ منها ...
تبعه الاب انجيلو بعينيه الى حوض غسل الوجه .. ففتح العمدة الصنبور . ووضع خده المورم تحت الماء المنساب الرطب ، ولبث هكذا برهة وقد بدا فى نشوة ... وبعد ذلك أخذ يمضغ قرصا مسكنا ، ثم اغترف بيده غرفة من الماء وقذف بها فى فمه ..
قال القس بالحاح :
ـ أقول لك بجد بامكانى أن أكلم طبيب الاسنان .
فأبدى العمدة اشارة تنم عن نفاد الصبر ، قائلا :
ـ افعل أى شىء تريده يا أبتاه ...
واستلقى فى الارجوحة ووجهه الى أعلى وقد أغمض عينيه ووضع يديه خلف رقبته وأنشأ يتنفس مغضبا ... ومالبث الالم أن خفت حدته ... وعندما فتح عينيه من جديد كان الاب انجيلو ينظر اليه صامتا وهو جالس قرب الارجوحة ...
قال له العمدة أخيرا :
ـ ما الذى جاء بك الى هنا ؟ ..
فقال القس دون مقدمات :
ـ سيزار مونتيرو ... لابد للرجل أن يؤدى واجب الاعتراف ..
فقال العمدة :
ـ ان الاتصال به ممنوع ... غدا ، بعد التحقيق الاولى ، يمكنك أن تأخذ اعترافه ... لابد من ترحيله يوم الاثنين ...
فقال القس :
ـ لم يبق له سوى ثمان وأربعين ساعة ...
فرد العمدة :
ـ وانا كنت أعانى من ضرسى مدة اسبوعين ...
وفى الغرفة القاتمة بدأ البعوض يطن .. ولما تطلع الاب انجيلو من النافذة رأى سحابة وردية كثيفة تطفو فوق النهر ..
عاد يقول :
ـ وماذا عن مشكلة الطعام ؟..

ترك العمدة الارجوحة لاغلاق باب الشرفة ، وقال :

ـ لقد قمت بواجبى .. انه لايريد ازعاج زوجته ، أو قبول الطعام من الفندق ..

وأخذ ينثر مبيدا حشريا حول الفرفة .. فبحث الاب انجيلو فى جيبه عن منديل لكيلا يعطس ، ولكن بدلا من المنديل وجد رسالة مثنية ، فهتف من المفاجأة محاولا بسط الثنيات بأصابعه .. ثم غطى أنفه ، لكن جهده ذهب سدى ، فقد عطس مرتين ... فقال العمدة باسما :

ـ اعطس يا أبتاه .. نحن فى بلد ديمقراطى !..

ابتسم الاب أنجيلو بدوره .. ثم أخرج الرسالة المغلفة قائلا :

ـ نسيت أن أضع هذه الرسالة فى البريد ...

وعثر أخيرا على المنديل فى كمه ، فتمخط تخفيفا لاثر المبيد الحشرى ... ذلك وما برح يفكر فى أمر سيزار مونتيرو ، اذ قال :

ـ المسألة تبدو وكأنك لا تطعمه سوى الخبز والماء ...

فقال العمدة :

ـ ان كان هذا مايريده ، فليس فى قدرتنا اجباره على الاكل ...

فقال القس :

ـ ان مايقلقنى أكثر هو ضميره ...

ودون أن يرفع المنديل عن أنفه راح يتابع العمدة بنظراته حول الفرفة الى ان فرغ من رش المبيد .. فأردف قائلا :

ـ لابد أن يكون فى حالة انزعاج شديد اذا ظن أنه سيموت بالسم ...

فوضع العمدة علبة المبيد على الارض وقال :

ـ هو يعرف أن كل واحد كان يحب باستور ...

فرد القس قائلا :

ـ وكان سيزار مونتيرو يحبه أيضا ..

ـ لكن الذى حدث هو أن باستور هو الذى مات ...

وجعل القس يتأمل الرسالة ... وبدأ الضوء يبدو قاتما ... ومالبث أن غمغم :

ـ ان باستور لم يجد فسحة من الوقت للاعتراف ...

فأضاء العمدة النور قبل أن يعود الى الارجوحة ، وقال :

ــ سأكون غدا فى حالة أحسن .. ويمكنك أن تباشر عملية الاعتراف بعد اتمام الاجراءات ... هل يوافقك هذا ؟ .

فأومأ الاب انجيلو موافقا ، وقال :

ــ كل هذا من أجل راحة ضميره ...

ونهض فى رصانة .. وأوصى العمدة ألا يكثر من أخذ الاقراص المسكنة للالم ، فرد العمدة بأن ذكره ألا ينسى الرسالة ...

وأضاف العمدة قائلا :

ــ ومسألة أخرى يا أبتاه ... حاول بكل طريقة ممكنة أن تكلم طبيب الاسنان ...

وفى طريق القس الى النزول ، أردف العمدة وهو يبتسم كما فعل من قبل :

ــ ان هذا كله اسهام فى توطيد أسباب الامن والاستقرار ..

وعرج الاب انجيلو على مكتب البريد وأعطى الرسالة لوكيل المكتب الذى دخل وبلل بلسانه طابعا بقيمة خمسة سنتافو رسم البريد الجوى والرسم الاضافى للتعمير .. وظل برهة يفتش فى درجه .. وعندما أضيئت أنوار الشارع وضع القس نقودا معدنية على الحاجز وانصرف دون أن يسلم ..

ولبث وكيل البريد يفتش فى الدرج .. وبعد ان تعب من البحث بين أوراقه ، كتب العبارة الآتية بالمداد على زاوية المظروف : « لاتوجد طوابع فئة خمسة سنتافو » .. ووقع بامضائه وبصم بخاتم المكتب ...

***

فى تلك الليلة عثر الاب انجيلو على فأر ميت طافيا فى حوض الماء المقدس .. وكانت ترينيداد تنصب المصائد فى مكان التعميد .. فأمسك بالفأر من ذيله وقال لها ملوحا :

ــ انك ستخلقين المشاكل .. ألا تعرفين أن بعض المتدينين يضعون الماء المقدس فى الزجاجات ليشربه مرضاهم ؟..

فقالت ترينيداد :

ــ وماهى المشكلة هنا ؟..

فرد القس قائلا :

ــ عجيب !.. ان المرضى فى هذه الحالة سوف يشربون ماء مقدسا مخلوطا بالزرنيخ ! ..

فذكرته ترينيداد أنه لم يعطها بعد نقودا لشراء الزرنيخ ، وقالت :
ـ انه جبس ...
وشرحت الطريقة ، فقالت انها وضعت الجبس فى أركان الكنيسة فكان الفأر يأكل شيئا منه ، وبعد برهة يشعر بعطش جنونى فيذهب ليشرب من حوض الماء المقدس ، وعندئذ يتجمد الجبس فى معدته ..
فقال القس :
ـ على أى حال كان الافضل أن تأتى وتأخذى النقود لشراء الزرنيخ ... أنا لا أريد فئرانا أخرى فى الماء المقدس ...
وفى المكتب وجد وفدا من « السيدات الكاثوليكيات » فى انتظاره برئاسة ربيكا آسيز .. وبعد أن أعطى ترينيداد النقود لشراء الزرنيخ أشار الى حرارة الغرفة وجلس الى مكتبه فى مواجهة السـيدات الثلاث ، اللائى كن ينتظرن صامتات ...
قال اهن :
ـ أنا فى خدمتكن يا سيداتى الكريمات ...
تبادلن النظرات ... ولم تلبث ربيكا آسيز أن فتحت مروحة طبعت عليها رسوم وصور يابانية ، وقالت دون خفاء :
ـ هى مسألة « الملصقات الفاحشة » يا أبتاه ...
وبصوت متموج كانما تحكى حكاية خيالية . راحت تصف مايخامر البلدة من انزعاج وجزع ... وقالت أنه حتى ولو كانت وفـاة باستور يمكن تفسيرها بأنها « مسألة شخصية بحتة » . فان العائلات المحترمة مضطرة الى اعتبار « الملصقات الفاحشة » مسألة تثـير القلق ...
وكانت كبرى السيدات الثلاث ، وهى « أدالجيزا مونتويا » ، أكثر ايضاحا ، اذ قالت وهى تتكىء على مظلتها :
ـ نحن معشر السيدات الكاثوليكيات قد قررنا أن نتدخـل فى الامر ...
جعل الاب انجيلو يتأمل بضع لحظات ... ولم تلبث ربيكا آسيز أن أخذت نفسا عميقا ، حتى لم يتمالك القس أن عجب كيف تستطيع هذه المرأة أن تستنشق مثل هذا الهواء الحار ... كانت رائعـة كزهرة ، ذات بياض يبهر النظر وصحة فياضة دافقة ... ومالبث القس أن تكلم ، فقال وقد ركز نظره عند نقطة لا وجود لها :
ـ احساسى هو اننا لا يجب أن نعير أى التفات لصوت الفضيحة ..

يجب أن نضع أنفسنا فوق مثل هذه الاشياء وأن نمضى فى طريقنا متبعين القانون الالهى ، كما درجنا أن نفعل هذا حتى الآن ..

وافقت « أدالجيزا مونتايا » على هذا الرأى بحركة من راسها .. لكن زميلتيها لم توافقا ، وبدا لهما أن « المصيبة يمكن أن تجلب نتائج وبيلة فى المدى الطويل » ... وفى هذه اللحظة « سعل » صوت الميكروفون من دار السينما ... فضرب الاب انجيلو على جبينه قائلا :

ـ معذرة ...

وفى نفس الوقت بحث فى الدرج عن كشف الرقابة الدينى ، قائلا :

ـ ما الذى يعرضونه فى دار السينما ؟..

فأجابت ربيكا آسيز :

ـ « فراصنة الفضاء » ... هو فيلم من أفلام الحرب ..

راح الاب انجيلو يبحث عنه فى البيان الابجدى للافلام وهو يغمغم أسماء العناوين مستعينا بسبابته فى البحث بين القائمة التفصيلية . وفيما هو منهمك فى ذلك للاطلاع على الصفة الاخلاقية للفيلم ، اذ سمع صوت مدير السينما بدلا من التسجيل الموسيقى المنتظر ، معلنا الغاء العرض السينمائى بسبب رداءة الطقس ... وأبدت احدى السيدات أن المدير اتخذ هذا القرار نظرا لان الجمهور طالب برد نقوده اذا توقف عرض الفيلم بسبب المطر قبل منتصف العرض .. فقال الاب انجيلو :

ـ شىء مؤسف ... فان الفيلم موافق عليه للجميع ..

وأقفل الكتيب واستطرد قائلا :

ـ كما كنت أقول ، فان هذه البلدة واعية ... فمنذ تسعة عشر عاما ، عندما عينونى فى هذه الابرشية ، كانت هناك احدى عشرة حالة للتسرى « اتخاذ العشيقات من الاماء » بين العائلات الكبيرة .. واليوم لا توجد سوى حالة واحدة ، والمأمول أن تنتهى بعد فترة قصيرة ..

فقالت ربيكا آسيز :

ـ ليس هذا ما يعنينا .. وانما هى مسألة خاصة بأولئك الناس المساكين ...

فاستطرد القس قائلا دون أن يلقى باله الى هذه المقاطعة :

ـ ليس ثمة سبب للقلق ... وعلى المرء أن يتذكر الى اى حد كبير تغيرت البلدة ... فى تلك الايام السالفة قدمت راقصة باليه روسية عرضا للرجال فقط فى دائرة محدودة ، وفى النهاية عرضت كل قطعة ملابس تسترها فى المزاد للمتفرجين !..

واختتم الاب انجيلو كلامه قائلا :

ـ أما الآن ، فقد دلت الشواهد على أن أهل هذه البلدة هم أكثر الناس وعيا بالجوانب الخلقية بين أبرشيات المنطقة ...

وعطف الاب انجيلو على ما يلاقيه من مصاعب فى كفاحه حيال الضعف والقصور الماثلين فى الطبع البشرى ، الى أن كفت المستمعات عن القاء السمع بسبب الحر ، حتى أن ربيكا آسيز بسطت مروحتها مرة ثانية ، فمضى يقول أخيرا :

ـ وفى نفس الوقت فان كنيستنا هنا هى أفقر الكنائس فى المنطقة كلها ... فان الاجراس قد تشققت ، وامتلأ صحن الكنيسة بالفئران لان حياتى كلها قد كرست لبث المبادىء الاخلاقية والعادات الحميدة ...

وفك ازرار ياقته ، ونهض قائلا :

ـ ان أى شاب يمكنه أداء هذا العمل من نواحيه المادية .. ولكن المرء بحاجة الى داب السنين الطوال والى خبرة الكبار لكى يعيد بناء السلوكيات والاخلاق ...

فلم تلبث ربيكا آسيز أن رفعت يدها الشفافة اللألاءة ذات خاتم الزواج الذى يعلوه خاتم آخر زمردى ، وقالت :

ـ ومن أجل هذه الاعتبارات ذاتها ، بدا لنا أنه مع وجود هذه « الملصقات الفاحشة » ، فان كل جهودك قد تكون مهددة بالضياع ..

وهنا انتهزت المرأة الثالثة التى ظلت صامتة طيلة الحوار الفرصة للتدخل قائلة :

ـ وفضلا عن هذا ، رأينا أن البلدة وهى تتماثل الآن للشفاء من اسقامها ، فقد تؤدى مصيبة « القصاصات الفاحشة » الى اثارة متاعب جديدة ..

فأخرج الاب انجيلو مروحة من درجة واخذ يروح بها متئدا ، ورد قائلا :

ـ ان مسألة معينة ليس لها علاقة بمسألة أخرى ... اننا اجتزنا

فترة سياسية صعبة ، ولكن الخلفيات الاسرية ظلت سليمة لم يمسها السوء ...

ونهض قائما أمام السيدات الثلاث ، وقال :

ـ في خلال سنوات معدودة سوف أذهب الى رئاسة هذه الابرشية وأقول : انني أقدم اليكم هذه البلدة النموذجية ... وكل ما أنتم بحاجة اليه الآن هو ايفاد شاب نشط لكي يجعل منها أحسن كنيسة فى المنطقة ...

وانحنى بتؤدة وأضاف :

ـ وعندئذ سأذهب لكى أموت بسلام فى مدافن أسلافى ...

احتجت السيدات ، وعبرت « ادالجيزا مونوتويا » عن أفكارهن قائلة :

ـ هذه البلدة مثل بلدتك أيها الاب ... ونحن نريد منك أن تبقى هنا الى آخر لحظة ..

وقالت ربيكا آسيز .

ـ ان كانت المسألة مسألة بناء كنيسة جديدة ، فيمكننا أن نبدأ الحملة من باكر ..

فرد الاب انجيلو قائلا :

ـ كل شيء فى وقته ...

ثم بلهجة أخرى أضاف قائلا :

ـ أما فى الوقت الحالى ، فاننى لا أريد أن أشيخ على رأس ابنة أبرشية ... لست أريد أن يحدث لى ماحدث للرجل الوديع انطونيو سانتسيمو ، الذى أبلغ الاسقف أن مطرا من الطيور الميتة كان يسقط فى أبرشيته ... لقد وجده المحققون الموفدون من قبل الاسقف فى الميدان الرئيسى يلعب مع الاطفال لعبة « عسكر وحرامية » ..

بدت الدهشة والحيرة على وجوه السيدات ، وقلن :

ـ ومن كان ؟..

فأجاب الاب انجيلو :

ـ كان الداعى الذى خلفنى فى بلدة ماكدوندو ... فقد بلغ المائة من العمر !..

الفصل الثالث

ان الشتاء الذى دلت الشواهد والتنبؤات منذ أواخر أيام سبتمبر على أنه سيكون شديد الوطأة ، بلغ ذروة قسوته فى نهاية هـذا الاسبوع ... ولقد أمضى العمدة يوم الاحد وهو يمضغ الاقـراص المسكنة مستلقيا فى أرجوحته ، فى حين فاض النهر على ضفته ودمر المناطق الواطئة فى البلدة ...

وفى خلال الفترة الاولى لانقطاع المطر ، فى فجر يوم الاثنـين ، كانت البلدة بحاجة الى ساعات عديدة لكى تسترد أنفاسها وتتمـاثل للشفاء مما نزل بها ..

وفى هذا اليوم فتح البار ودكان الحلاق بابيهما مبكرين ، لـكن معظم البيوت ظلت موصدة حتى الساعة الحادية عشرة ..

وكان مستر كارميكل هو أول من سنحت له الفرصة لكى يرتعـد لمشهد الرجال وهم يحملون بيوتهم الى بقاع أكثر ارتفاعا ... ولقد راحت الجموع المهرولة المتزاحمة تتسابق مما استخلصته من جدران بيوتها الهشة المضفورة من الاغصان وسقوف النخيل لاقامتها فى الاماكن الآمنة من الفيضان ...

وكان مستر كارميكل محتميا بافريز سقف دكان الحلاق فاتحـا مظلته يتأمل هذا الموكب العانى عندما أخرجه الحلاق مـن تأمـلاته قائلا :

ــ كان عليهم أن ينتظروا حتى يتكشف الطقس ..

فقال كارميكل وهو يضم مظلته :

ــ لن يتكشف قبل يومين ..

كان الرجال الذين يحملون بيوتهم وهم غارقون فى الوصول حتى سيقانهم يمرون تباعا وهم يصطـدمون بحائط دكان الحلاق وقـد تعرض متاعهم للدمار ، حتى لقد شعر كارميكل بوطأة الكارثة ..

وبدا كأن الوقت يناهز السادسة صباحا ، ولكن معدته دلته على انهم يشارفون الثانية عشرة .. ودعاه أحد التجـار الشرقيين الى الجلوس فى دكانه حتى ينتهى المطر ، فكرر كارميكل ماقاله آنفا من أن الجو لن يتكشف قبل ثمان وأربعين ساعة .. وقد تردد فترة قبل

الوثوب الى المعبر الخشبي للبيت المجاور ... وقذف نفر من الاولاد كانوا يلعبون لعبة الحرب كرة من الطين لطخت الحائط على بعد أقدام قليلة من بنطلونه المكوى حديثا .. وخرج تاجر آخر من دكانه وبيده مكنسة يهدد الاولاد ويتوعدهم ... فأخذ الاولاد يتواثبون فى مرح وهم يتغامزون على التاجر .

ولما رأى مستر كارميكل أن ملابسه لم يمسسها سوء مالبث أن دخل دكان الحلاق واتجه الى الكرسي مباشرة .. فقال الحلاق :

ـ كنت أقول دائما انك رجل حكيم ...

وعمد الى فوطة فربطها حول عنق كارميكل ، واستهل عمليته بتقليم الشعر المجعد على قفاه ... ولما شعر كارميكل بالضجر نظر حوله باحثا عن شيء يقرؤه ، قائلا :

ـ الا توجد عندك جرائد ؟..

فرد الحلاق قائلا دون أن يتوقف عن عمله .

ـ ان الجرائد الوحيدة التى تركوها فى البلاد هى الجرائد الرسمية ، ولن تدخل دكانى طالما بقيت على قيد الحياة ...

فقنع مستر كارميكل بالنظر الى حذائه ، الى أن سأله الحلاق عن احوال الارملة مونتيل .. كان كارميكل قادما من عندها ... فهو يعمل مديرا لاعمالها منذ وفاة زوجها دون جوزيه شيب مونتيل ، وكان مشرفا على حساباته سنوات طويلة ...

وقد أجاب كارميكل قائلا :

ـ انها فى مقرها ...

فقال الحلاق وكأنه يكلم نفسه :

ـ يظل الانسان يكد ويكدح حتى يموت ... وهاهى ذى وحيدة ، مع مساحة من الارض لا يمكنك أن تقطعها على ظهر حصان فى خمسة ايام .. لابد أن ملكيتها تشمل عشرة بلدان تقريبا ..

فقال كارميكل :

ـ ثلاثة ... ثم أضاف بلهجة التأكيد :

ـ انها اكمل امرأة فى الدنيا كلها ...

انتحى الحلاق جانبا لتنظيف المشط ... ولمح مستر كارميكل وجهه العنزى منعكسا فى المرآة ، ففهم مرة اخرى لماذا لم يكن يحترمه ... ثم تكلم الحلاق ، ناظرا الى الصورة :

ـ عملية رابحة ... يصل الحزب الى السلطة ، ويهدد البوليس

خصوم صاحبنا السياسيين بالموت ، فيشترى هو ارضهم ومواشيهم بالثمن الذى يحدده ...

خفض مستر كارميكل رأسه ... فعاد الحلاق الى قص شعره مرة أخرى ، وأضاف قائلا :

ـ وعندما تنتهى الانتخابات يملك صاحبنا ثلاث بلدان ، ولا يجد من ينافسه ، وتكون له اليد العليا حتى بتغيير الحكومة ... وكل ما يمكن أن أقوله فى هذا هو انها أبدع عملية فى الوجود ، بل انها اربح حتى من التزييف ...

فقال مستر كارميكل :

ـ ان جوزيه مونتيل كان غنيا قبل الاضطرابات السياسية بزمن طويل ...

فقال الحلاق :

ـ ... عندما كان يجلس بسراويله عند باب صومعة أرز ! .

وهناك قصة تقول انه ليس أول زوج حذاء فى سن التاسعة ..

فاعترف مستر كارميكل بهذا قائلا :

ـ وحتى لو كان هذا ، فان الارملة لم يكن لها ضلع فى أعمال مونتيل ...

فقال الحلاق :

ـ لكنها كانت الدمية التى اتخذها واجهة له ..

لم يلبث مستر كارميكل أن رفع رأسه .. ثم خفف رباط الفوطة حول رقبته لتسهيل الدورة الدموية ، وأعرب عن احتجاجه قائلا :

ـ هذا هو السبب فى اننى كنت أفضل دائما أن تتولى زوجتى قص شعرى ... انها لا تأخذ منى أجر الحلاقه ، وفوق هذا فهى لا تتكلم فى السياسة ...

فدفع الحلاق رأسه الى الامام واستمر يعمل فى صمت .. واحيانا كان يضرب بمقصه فى الهواء الشمس من فرط تمكنه من الفن ... وسمع مستر كارميكل صياحا من الشارع ... فنظر فى المرآه ورأى أطفالا ونساء يمرون تباعا أمام باب الدكان حاملين الاثاث والادوات المنزلية من بيوتهم التى كانوا ينقلون مواقعها ... فقال فى أسى :

ـ المصائب تأكلنا ، وأنتم أيها الناس مازلتم بأحقادكم السياسية

... ان الظلم قد انتهى منذ عام ، ومازلتم تتكلمون عـــن نفس الموضوع ! ...

فرد الحلاق قائلا :

ـ ان حالة الاهمال التي نعيش فيها هي ظلم أيضا ..

فقال مستر كارميكل :

ـ لكنهم لا يعذبوننا ..

ـ ان الاهمال هو نوع آخر من التعذيب ..

فاهتاج مستر كارميكل قائلا :

ـ هذا كلام جرائد ...

ظل الحلاق صامتا ... وارغى بعض الصابون في الاناء وغمس الفرشاة وأجراها على قفاه ، وقال معتذرا :

ـ الحكاية هي أن الانسان يجب أن يتبسط في الكلام .. اننـا لا نحظى كل يوم برجل محايد ...

فقال مستر كارميكل :

ـ لا يستطيع أي انسان الا أن يكون محايدا وعنده احد عشـر طفلا يطعمهم ...

وقال الحلاق :

ـ موافقون ...

واجرى الموسى بخفيف على راحة يده .. وأخذ يحلق العنـــق صامتا ، مزيلا رغوة الصابون على أصابعه ، ومنظفا أصابعه في بنطلونه ... وفي النهاية دلك القفا بقطعة من الشب ، ثم فرغ صامتا ...

وبينما كان مستر كارميكل يزرر ياقته لمح الرقعة المسمرة عـلى الحائط الخلفي تحمل هذه العبارة : « ممنوع الكلام في السياسة » ... فنفض الشعيرات من كتفيه ، وعلق مظلته في ذراعه ، وقال مشيرا الى الرقعة :

ـ لماذا لا ترفعها ؟..

فقال الحلاق :

ـ انها لا تشملك ... فقد اتفقنا على أنك رجل محايد ..

لم تتردد مستر كارميكل هذه المرة في الوثوب مبتعدا عن دكـان الحلاق ، الذي ظل يراقبه الى ان استدار حول الناحية ؛ وبعـدها انشغل بمراقبة النهر الصاخب المنذر بالخطر ... لقد توقف المطر ، بيد ان سحابة كثيفة بدت معلقة فوق البلدة لا تريم ولا تتزحزح ..

وقبل الساعة الواحدة بقليل جاء التاجر الشرقي يندب شعره الذي يتساقط من جمجمته ومع ذلك فهو ينمو على قفاه بكثرة وبسرعة عجيبة ...

وكان من عادة التاجر ان يأتي لقص شعره يوم الاثنين .. وكان يسلم راسه للحلاق مستكينا ويأخذ في الغطيط بينما يسترسل الحلاق في الكلام الى نفسه بصوت مرتفع .. أما يوم الاثنين هذا ، فقد استيقظ منتفضا لذى السؤال الاول :

ـ هل تعرف من كان هنا الآن ؟..

فأجاب التاجر :

ـ كارميكل ...

فقال الحلاق وهو يضغط على الكلمات :

ـ كارميكل العفن الوغد ... انني أكره هذا الصنف من الرجال .

فقال التاجر :

ـ ان كارميكل ليس من الرجال .. انه لم يشتر لنفسه حذاء في بحر ثلاث سنوات ... لكنه في مجال السياسة يفعل كل ماهو مطلوب منه .. فهو يشرف على الحسابات والدفاتر بعيون مغمضة ...

واسند لحيته الطويلة على صدره لكي يغط من جديد ، لكن الحلاق انتصب امامه مشبك الذراعين ، قائلا :

ـ قل لي شيئا واحدا يا أخ ... بصرف النظر عن كل الاقوال والافعال : مع أي جانب أنت ؟..

فأجاب التاجر دون اي قلق :

ـ مع نفسي ...

فقال الحلاق :

ـ أنت غلطان ... كان يجب على الاقل أن تتذكر دائما انهم كسروا أربعة أضلاع في صدر ابن زميلك التاجر الياس ، بناء على أوامر من دون جوزيه مونتيل ....

فقال التاجر الشرقي :

ـ ان الياس حزن لأن ابنه اندمج في السياسة .. اما الآن فان الابن ينعم بالحياة في البرازيل ، في حين أن جوزيه مونتيل في عداد الاموات ...

قبل أن يغادر العمدة غرفته التى كانت مبعثرة نتيجة لليالى الطويلة التى قضاها يعانى من ضرسه ، حلق الجانب الايمن لوجهه ، تاركا الجانب الآخر بشعر ذقن طوله أسبوع .. وما لبث ان ارتدى كسوة رسمية نظيفة وحذاءه العالى اللامع وخرج لتناول الطعام فى الفندق منتهزا فرصة توقف المطر ...

لم يكن هناك أحد فى قاعة الطعام ... فشق العمدة طريقه خلال الموائد الرباعية الصغيرة واحتل ركنا منعزلا فى آخر القـــاعة .. ونادى :

ـ ماسكس !..

ردت عليه فتاة صبية تلبس ثوبا ضيقا قصيرا ولها نهدان بارزان كحجرين ... فأمر العمدة بالغداء دون أن ينظر اليها ...

وقبل أن تعود الصبية الى المطبخ أدارت الراديو القائم فوق رف فى آخر القاعة .. فسمعت نشرة أخبـــار كانت تذاع ، متضمنة مقتطفات من خطاب القاه رئيس الجمهورية فى الليلة الماضية،واعقبها بيان بالسلع الحديدة التى تقرر منع استيرادها ... وتزايدت شدة الحراسة بينما كان صوت المذيع يملأ المكان ... وعندما عـــادت الصبية بالحساء كان العمدة يحاول تخفيف الحر بالترويح « بكابه » العسكرى .. فقالت الصبية :

ـ ان الراديو يجعلنى أعرق أيضا ...

واخذ العمدة يتناول حساءه ... وكان يرى دائما أن هـــذا الفندق المنعزل الذى يؤمه بعض البائعين المتجولين بين البـــلاد على فترات ، هو مكان يختلف عن بقية البلدة ... والواقع أن تاريخـــه سابق للبلدة ذاتها .. فقد اعتاد التجار الوافدون من داخلية البلاد لشراء محصول الارز تمضية ليلهم فى الشرفة الخشبية العتيقة وهم يلعبون الورق منتظرين طراوة الفجر حتى يتسنى لهم النوم ... وفى الحرب الاهلية الاخيرة جاء الكولونيل « أوريليانو بويندا » ذاته الى الفندق وهو فى طريقه الى بلدة ماكوندو لوضع شروط الاستسلام ، ونام فى هذه الشرفة ذاتها ليلته فى وقت لم تكن توجد فيها اية بلدان فى مدى فراسخ عديدة حواليه .. وكان مبنى الفندق الحالى هـــو نفسه حينذاك ، بذات حوائطه الخشبية ، وسقفه الزنك ، وقاعـــة طعامه ، وحواجزه من الكرتون ـ فيما عدا الكهرباء والمرافق الصحية ... وقد روى أحد قدامى البائعين المتجولين انه عند مستهل القرن

كانت هناك مجموعة من الاقنعة معلقة فى قاعة الطعام تحت تصرف النزلاء ، وأن الضيوف المقنعين كانوا يقضون الحاجة فى الحوش على مرأى من بعضهم البعض ...

هذا ، ولم يتمالك العمدة ان فك ازرار ياقته لكى يتم شرب الحساء ... وبعد نشرة الاخبار اذيعت اعلانات تجارية غنائية .. واعقبها أغنية عاطفية عن رجل متيم بالحب ، قرر أن يطوف حول العالم فى أثر معشوقته ...

وركز العمدة اهتمامه فى القاعة أثناء انتظاره لبقية الوجبة .. ولم يلبث ان لمح طفلين حاملين بعض الكراسى يمران أمام الفندق .. وجاءت بعدهما امرأتان ورجل ، وثلاثتهم يحملون أوانى وبرميل استحمام وبقية الامتعة ...

وعندئذ قام العمدة الى الباب وصاح فيهم :

ــ من أين سرقتم هذه الامتعة ؟..

توقفت المرأتان ... وتولى الرجل البيان ، فقال انهم ينقلون دارهم الى الارض المرتفعة .. فسأله العمدة اين مقرهم الجديد ، فأشار الرجل بقبعته الى ناحية الجنوب قائلا :

ــ هناك ، فى أرض أجرها لنا دون ساباس بثلاثين بيزو ..

جعل العمدة يقلب نظره فى الامتعة المتهالكة ، امتعة أناس فقراء .. وأخلد الى التأمل برهة ، وأخيرا قال :

ــ اذهبوا بكل هذا الى الارض الخالية عند المدافن ..

ظهر الارتباك على الرجل ، فقال العمدة :

ــ هذه أرض الحكومة ، ولن تكلفكم شيئا ..

ثم التفت الى المرأتين واضاف قائلا :

ــ ... ان الحكومة تهبها لكم ... ثم قولوا لدون ساباس اننى ابلغه رسالة من عندى ، وهى الا يكون من قطاع الطرق النهابين ..

وانهى غداءه دون ان يذوق أى طعام ... وبعد ذلك أشعل سيجارة ، ثم اشعل سيجارة ثانية من عقب السيجارة الاولى ، واستسلم للتفكير فترة طويلة مسندا مرفقيه الى المائدة بينما كان الراديو يرن صداه بالاغنيات العاطفية ...

وسألته الصبية وهى ترفع الصحاف :

ــ فيم تفكر ؟..

فأجاب دون أن يطرف بعينيه :

ـ فى هؤلاء الفقراء المساكين ...

ووضع « الكاب » على رأسه واجتاز القاعة .. ثم استدار عند الباب قائلا :

ـ لابد أن نجعل من هذه البلدة المنكودة بلدة طيبة ..

ونشب قتال دموى بين بعض الكلاب قطع عليه الطريق وهو ينعطف لدى الناصية ... ووقع نظره على تشابك من الظهور والارجل فى دوامة عاتية من العواء الشرس اسفر عن أنياب مكشرة وكلب يجر أطرافه وذيله بين ساقيه .. فحاد العمدة عن الطريق واتجه الى ثكنات البوليس مباشرة ..

وسمع امرأة تصرخ فى غرفة الحجز ، بينما كان الحارس نائما قيلولته منبطحا على وجهه فى السرير العسكرى ... فرفس العمدة قائم السرير حتى استيقظ الحارس وثبا .. فسأله العمدة :

ـ من هى ؟..

ـ المرأة التى تعلق « الملصقات الفاحشة » ...

انفجر العمدة بوابل من السباب واللعنات على مرءوسيه ، طالبا أن يعرفوه من الذى جاء بالمرأة الى هنا وبأوامر من وضعوها تحت الحجز ... فأفاد من الجنود فى الشرح والبيان ، فقال لهم :

ـ متى وضعتموها فى الحجز ؟ ...

ولما قالوا أنهم حجزوها منذ ليلة السبت صاح فيهم :

ـ حسن ... لتخرج المرأة ، وليدخل مكانها واحد منكم !..

ان هذه المرأة كانت نائمة فى الحجز ، ولما استيقظت البلدة كانت الملصقات فى كل مكان !..

وما أن فتح الباب الحديدى حتى خرجت امرأة متقدمة فى السن بارزة العظام ضمت شعرها الاشعث بمشط وصاحت فى وجه العمدة وهى تخرج من الزنزانة :

ـ ستذهب الى جهنم !..

وفكت المرأة شعرها الذى بدا غزيرا ونزلت فى السلالم مضعضعة وهى تصرخ :

ـ ياعواهر !... ياعواهر !...

فانحنى العمدة فوق حاجز السلالم وصرخ بأعلى صوته وكأنه يريد الا تسمعه المرأة وحدها ولا رجاله فقط بل اهل البلدة اجمعين :

ـ وعليك الا تنغصى عيشتى بتلك الملصقات اللعينة !..

على الرغم من استمرار الرذاذ بلا انقطاع ، فقد خرج الاب انجيلو للقيام بجولاته اليومية بعد الظهر ... كان الوقت لايزال مبكرا عن موعد لقائه مع العمدة ، وهكذا يمم شطر القسم الذى غمره الفيضان فى البلدة ... فكان كل ما وجــده جثة قطة طافية بين بقــايا الزهور ...

وفى طريق عودته بدأ الطقس يجف ويصحو .. وكان ثمة صندل مشحون باورق القطون يشق النهر المتكاثف الهامد ...

وكانت روجة القاضى اركاديو جالسة بجانب باب بيتهما مشــبكة ذراعيها فوق بطنها المتضخم مركزة نظراتها على الصندل .. وعلى مبعدة ثلاثة بيوت بدأت الحوانيت تخرج معروضاتها والتجار الشرقيون يجلسون عند أبوابها ... وفى انصرام النهار بدت السحب الكثيفة وردية اللون والجو يخالطه صخب الببغاوات والقرود على صــفة النهر المواجهة ...

وبدات البيوت تفتح أبوابها ... وفيما تحت أشجار اللوز الكابية فى الميدان ، وحول عربات اليد التى تقدم المشروبات ، وفوق دكك الحوانيت المتقادمة فيما بين أحواض الزهور ــ كان الرجال يتجمعون لازجاء الوقت بالحديث والثرثره ...

ولم يبصر الاب انجيلو الدكتــور جيرالدو ، ولكنه تصوره بعين الخيال يبتسم من خلف ستار النافذة ... ثم سمع صوته يقول له : ــ

ــ ادخل الى غرفة الانتظار ...

دفع الاب انجيلو الباب .. فوقع نظره على طفل ممدد فــوق مرتبة وليس فى هيكله سوى عظــام تـكسوها بشرة مصفرة ... وكان فى الانتظار رجلان وامرأة جالسين قرب الحائط الكرتونى ... فسأل :

ــ من يكون هذا ..

فردت المرأة قائلة :

ــ ولدى ... منذ سنتين وهو ينزف الدم ...

وحول الطفل المريض عينيه الى ناحية الباب دون أن يحرك رأسه ، حتى لقد شعر القس بأشد الرثاء لحالته ... وسأل المرأة :

ــ وماذا فعلتم له ؟ ...

فأجابت المرأة :

ـ كنا نعطيه موزا أخضر منذ فترة طويلة ... لكنه بدأ يرفضه ، مع انه لذيذ وقابض ...
فقال القس :
ـ لابد أن تجيئوا به للاعتراف ...
لكنه قالها بغير تيقن ...
وأغلق الباب بعناية وحك ستار النافذة بأصبعه وهو يدني وجهه منه لكي يرى الطبيب في الداخل ...
كان الدكتور جيرالدو يسحق شيئا في هاون ... فسأله القس :
ـ ماذا به ؟...
فرد الطبيب قائلا :
ـ انني لم افحصه بعد ...
ثم عقب ساهما :
ـ هناك أشياء تحدث للناس بارادة الله يا أبي ...
فقال الاب انجيلو :
ـ لا أحد بين الموتى الذين رأيتهم في حياتي بدا أشد موتا من هذا الطفل التعس ...
واستأذن منصرفا ... ولم تكن ثمة مراكب على رصيف الميناء النهري ... وبدأ الظلام يرخي سدوله .. وشعر الاب انجيلو أن حالته الفكرية تغيرت بمشهد الطفل العليل .. ولما أدرك أنه تأخر عن موعده مع العمدة أسرع في سيره متجها الى ثكنات البوليس ..
كان العمدة متهالكا في المقعد المنطوي وراسه بين يديه ، فقال له القس بتؤدة :
ـ مساء الخير ...
رفع العمدة راسه ، وارتعد القس لما رأى من حمرة اليأس في عينيه ... وبدأ أحد خديه حديث الحلاقة ، أما الثاني فكان في شبه مستنقع من أثر المرهم الرمادي الذي غطاه ... وقد هتف متوجعا بنبرات متبلدة :
ـ يا أبي ... انني سأطلق النار على نفسي ! ..
شعر الاب انجيلو بلون من الجزع ، وقال :
ـ انك تبدو مثل سكران بسبب كثرة الاسبيرين الذي تأخذه ..
فتقلب العمدة الى ناحية الحائط ممسكا راسه بين يديه وأخذ

يدقه فى الالواح ، حتى قدر القس فى نفسه أنه لم يشهد قط مثل هذا الالم ... فلم يجد فى حيرته الا ان يقول :

ـ خذ قرصين مسكنين ... ان قرصين زيادة لن يقتلاك ..

واخذ يبحث عن اقراص المسكن فى فراغ الغرفة العارية ، ولم يكن بها سوى بضعة مقاعد جلدية صغيرة بلا ظهر ، ودولاب زجاجى محشو بأوراق متربة ، وصورة مطبوعة بالحجر لرئيس الجمهورية معلقة بمسمار ... وكان الاثر الوحيد لوجود الاقراص المسكنة هو اغلفتها الفارغة المنثورة على الارض .. فقال القس بياس :

ـ أين هى ؟...

فرد العمدة قائلا :

ـ لم يعد لها أى تأثير على ...

فاقترب القس منه وكرر سؤاله :

ـ قل لى أين هى ؟...

فرجف العمدة رجفة شديدة ادنت وجهه المحتقن البشع من وجه القس ، وصرخ :

ـ لعنة الله ! .. قلت لك انها لا تفيدنى بشىء !...

ورفع أحد الكراسى الصغيرة فوق رأسه وطوح به بقوة اليأس الذى تملكه الى الدولاب الزجاجى ... ولم يفهم الاب انجيلو ماحدث الا بعد مطر الزجاج المتهاوى ، وعندها بدأ العمدة ينهض مثل طيف يبرز من ثنايا سحابة من الغبار ... واعقب هذا سكون مطبق ...

ثم غمغم القس :

ـ ياحضرة الملازم ...

لاح عند الباب جنود البوليس شاهرين بنادقهم .. فنظر اليهم العمدة دون أن يبصرهم وهو يتنفس مثل قطة فنكسوا بنادقهم ولكنهم ظلوا بلا حراك قرب الباب .. وعندئذ أمسك الاب انجيلو بذراع العمدة الى الكرسى المنطوى وهو يقول له باصرار :

ـ أين الاقراص المسكنة ؟..

فأغمض العمدة عينيه وطوح راسه الى الخلف قائلا :

ـ لن آخذ شيئا بعد الآن من هذه الاقراص ... ان اذنى تطنان وعظام جمجمتى توشك على الشلل ...

وفى فترة سكون الالم الوجيزة ادار رأسه نحو القس قائلا :

ـ هل كلمت طبيب الاسنان ؟ ..

فرد القس بنعم فى صمت ... ومن واقع ملامح القس التى أعقبت عدا الرد عرف العمدة نتائج المقابلة ... وقد قال له القس :

ـ ماذا لا نكلم الدكتور جيرالدو ؟.. هناك أطباء باطنيون يخلعون الاسنان ...

توانى العمدة فى الرد ، وقال اخيرا :

ـ فى الغالب سيقول انه ليس لديه عدة خلع ...

واضاف قائلا :

ـ هى مؤامرة !..

وانتهز فرصة سكون الالم الوقتى للراحة من وطأة عـــذابه .. وعندما فتح عينيه كانت الغرفة شبه معتمة ... فقال دون أن يبصر الاب انجيلو ...

ـ انك جئت من أجل سيزار مونتيرو ...

ولما لم يتلق ردا مضى يقول :

ـ مع هذا الالم لم أتمكن من عمل أى شىء ...

ونهض قائما لاضاءة النور ، فاندفعت أول موجة من البعــوض الى الداخل من خلال الشرفة ، حتى لقد دهش الاب انجيلو من تأخر الوقت على هذه الصورة ، وقال :

ـ الوقت يمر سريعا ...

فقال العمدة :

ـ لابد من ارساله يوم الاربعاء على أى حال ... غـدا اتخــــذ ترتيباتك وتلق اعترافه بعد الظهر ...

ـ فى أى ساعة ؟..

ـ الرابعة ...

ـ حتى لو أمطرت ؟..

وفى نظرة واحدة أطلق العمدة كل الضيق المكتوم طوال اسبوعين من المعاناة والعذاب قائلا : حتى لو كانت نهاية الدنيا يا أبى ..

***

غدا الالم فى منعة من التأثر بالمسكنات .. وعلق العمدة ارجوحنه فى الشرفة محـــاولا النوم فى طراوة المساء المبكر ... لكن قبــل أن تحل الساعة الثامنة استسلم لليأس من جديد ونزل الى الميــدان الذى كان فى حالة خدر بسبب تفاقم الجو ...

وبعد طواف فى المنطقة دون أن يجد الالهام الذى كان ينشده للارتفاع فوق الالم ، اتجه أخيرا الى دار السينما ...

لكنها كانت غلطة ... فان أزيز الطائرات الحربية فى الفيلم ضاعف من حدة الالم .. فترك دار السينما قبل الاستراحة وقصد الى الصيدلية فى اللحظة التى كان فيها دون لالو موسكوت يستعد لاغلاق الصيدلية ...

وقال له :

ـ أعطنى أقوى شىء عندك لوجع الاسنان ...

فحص الصيدلى الخد بنظرة متبلدة ... ومالبث أن ذهب الى المكان الخلفى للصيدلية مارا بصف من الدواليب الزجاجية الابواب كانت مليئة عن آخرها بقنان خزفية كتب على كل منها اسم المادة بحروف زرقاء ... وعندما وقف العمدة ينظر الى الصيدلى من خلف أدرك أن هذا الرجل المورد الوجه والعنق أغلب الظن يعيش حياة سعيدة ... انه كان يعرفه ... فهو يقيم فى غرفتين خلف الصيدلية ، وله زوجة بدينة مفرطة البدانة ، واصيبت بالشلل منذ سنوات طويلة ...

عاد دون لالو موسكوت ومعه قنينة لا تحمل بطاقة ، وعندما فتحها انبعث منها بخار أعشاب زكية ، فقال له العمدة :

ـ ما هذا ؟..

دس الصيدلى أصابعه فى القنينة بين البذور المجففة ، وأجاب قائلا :

ـ بذور النعناع والجرجير ... امضغتها جيدا وابلع العصير ببطء ... ليس أفضل من هذا دواء للروماتيزم ...

وألقى بضع حبات فى كفه وقال وهو ينظر الى العمدة من فوق نظارته :

ـ افتح فمك ...

تراجع العمدة ... وأدار القنينة للتأكد من عدم كتابة شىء عليها، ثم عاد بنظرة الى الصيدلى قائلا :

ـ أعطنى شيئا مستوردا من الخارج ...

فقال دون لالو موسكوت :

ـ هذا أفضل من أى شىء مستورد من الخارج ... انه مضمون بثلاثة آلاف سنة من الحكمة الشعبية ...

وبدا يفلف البذور فى قطعة من ورق الجرائد .. ولم يكن فى هذا يبدو كرب أسرة ... كان يبدو وكأنه عم عطوف ، يغلف البذور بحنو انسان يصنع طيورا من الورق للأطفال ... وعندما رفع راســه بدا يبتسم ، وقال :

ـ لماذا لا تخلع الضرس ؟..

لم يرد العمدة ... ودفع الثمن نقدا وغادر الصيدلية دون انتظــار بقيته ...

وتنصف الليل ولم يزل يتلوى فى أرجوحته دون أن يجسر على مضغ البذور ... وعندما كانت الساعة الحادية عشرة وقد بلغت الحرارة ذروتها ، تفجر السحاب ، ولكنه أسفر عن رذاذ خفيف .. ولما أنهكته الحمى وأخذ يرتعد والعرق البارد اللازج يغمره ، لم يتمالك وهــو منبطح على وجهه فى الارجوحة ان فتح فمه وبدأ يصلى فى نفسه ... كان يصلى بعمق وقد تصلبت عضلاته من تقلص الالم ، لكنه كان مدركا أنه كلما جاهد للتقرب الى خالقه ، كانت قوة الالم من الشدة بحيث تدفعه الى الناحية العكسية .. وفى النهاية لبس حذاءه العالى ومعطفه الواقى من المطر فوق البيجاما ، واتجه الى ثكنات البوليس ...

وهناك انفجر بالصياح ... وسرعان ماتواثب جنود البوليس وهم بين الكابوس واليقظــة وراحوا يتحنطون فى الشمس باحثين عن أسلحتهم ... وعندما اضيئت الانوار كانوا نصف لابسين ، منتظــرين الاوامر ...

صاح العمدة :

ـ جونزاليز ! .. روفيرا ! .. بيرالتا ! ..

انفصل المسمون الثلاثة عن زملائهم واحاطوا بالعمدة ... ولم يكن ثمة سبب ظاهر يبرر هذا الاختيار : فقد كانوا ثلاثة أفراد عاديين من المولدين ... وكان أحدهم ، وهو طفولى الملامح ، حليــق الراس ، يرتدى « فانلة » داخلية ... وكان زميلاه يرتديان نفس « الفانلة » ، تحت كسوة عسكرية غير مزررة ...

ومهما يكن فانهم لم يتلقوا أوامر محددة ... وانما وثبوا فى السلالم خلف العمدة كل اربع درجات معا ، وغادروا الثكنات فى صف غير منتظم ... واجتازوا الشارع دون ان يعبأوا بالمطر ، ثم توقفوا امام مكتب طبيب الاسنان ... وفى هجوم خاطف حطموا الباب بكعوب البنادق. واقتحموا البيت فى اللحظة التى اضىء فيها نور الردهة ... وظهر

رجل ضئيل أصلع نافر العروق وقف عند الباب الخلفى لابسا « الشورت » محاولا ارتداء « روب » الحمام ... ولاول وهلة ظل مشلولا فى مكانه رافعا أحد ذراعيه فاغر الفم ، كصورة فوتوغرافية تبدو فى الوميض الخاطف ... ولم يلبث أن وثب الى الخلف مصطدما بزوجته التى كانت قادمة من غرفة النوم بجلباب نومها ...

صاح العمدة :

ـ لا تتحرك ...

رفعت المرأة يديها الى فمها قائلة : آه !.. ثم انسحبت عائدة الى غرفة النوم ... أما طبيب الاسنان فقد اتجه الى الردهة وهو يلف الحبل حول الروب ، وعندئذ فقط ميز رجال البوليس الثلاثة الذين وقفوا مصوبين بنادقهم اليه ، بينما وقف العمدة هادئا والماء يقطر من كل أطرافه وقد دس يديه فى جيوب معطفه ..

قال العمدة :

ـ اذا خرجت السيدة من الغرفة فعندهم أوامر باطلاق النار عليها ! ...

أمسك طبيب الاسنان بأكرة الباب قائلا لزوجته :

ـ سمعت يابنت ؟...

وأغلق باب غرفة النوم باحكام ... ثم سار الى غرفة الاسنان تتابعه فوهات البنادق الكالحة ... وقد سبقه جنديان الى هذه الغرفة ، فأضاء أحدهما النور ... واتجه الثانى الى منضدة العمل وأخرج مسدسا من الدرج ...

فقال العمدة :

ـ لابد هناك مسدس آخر ..

كان دخول العمدة اخرهم ، خلف الطبيب ... وتولى الجنديان اجراء تفتيش سريع ومدقق ، بينما وقف الثالث لحراسة الباب ..

وفى عملية التفتيش القوا على المنضدة صندوق الادوات وبعثروا قوالب الحشو واطقم الاسنان التى لم تتم والاسنان الفردية والانطية المذهبة على الارض ... كما أفرغوا القنانى الخزفية التى كانت فى الدولاب ، وبضربات سريعة من السونكيات اخرجوا احشاء الوسادة المغطاة بقماش المشمع على مقعد الطبيب ، وكذلك احشاء الوسادة الزنبركية فوق الكرسى الدائرى ...

قال العمدة عن المسدس محددا نوعه :

ـ طويل الفوهة عيار ٣٨ .

وتفرس فى وجه الطبيب وهو يقول :

ـ كان الافضل لو قلت لنا من الاول أين المسدس ... اننا لم نات مستعدين لهدم البيت على من فيه ...

لم تفصح نظرات طبيب الاسنان من خلف نظارته المذهبة الاطار المنبعثة من عينين ضيقتين متبلدتين عن شيء .. وانما قال بلهجة متراخية :

ـ من ناحيتى ، أنا غير مستعجل .. يمكنكم اذا أحببتم أن تهدموا وتمروا ...

أخذ العمدة فى التفكير ... وبعد عملية فحص ثانية للغرفة الصغيرة ، اتجه الى الكرسى وهو يصدر أوامر قاطعة لرجاله ... اوقف أحدهم قرب باب الشارع ، والثانى عند مدخل المكتب ، والثالث قرب النافذة .. وعندما استقر به الجلوس فى المقعد وفك أزرار معطفه الغارق فى المطر ، شعر بالامان وهو محاط بالسلاح الذريع ... ثم أسند رأسه الى مسند الرأس ، محاولا أن يتحكم فى تنفسه ...

وعندئذ التقط طبيب الاسنان بعض الادوات من الارض ووضعها فى اناء لغليها ... وظل مديرا ظهره للعمدة وهو يتأمل اللهب الازرق المنبعث من الموقد الكحولى بنفس الملامح التى لابد كانت تعلوه وهو وحده فى المكتب ... وعندما غلى الماء لف قطعة ورق حول مقبض الاناء وحمله الى الكرسى ... فوجد الجندى يسد طريقه .. فأدلى الاناء ونظر الى العمدة من فوق البخار قائلا :

ـ هذا السفاح أن يذهب الى أى مكان بحيث لا يكون فى طريقى ...

وباشارة من العمدة ابتعد الجندى عن النافذة لكى يفسح الطريق الى الكرسى ... ثم جذب مقعدا الى الحائط وجلس عليه منفرج الساقين والبندقية على فخذيه دون أن ينثنى عن الرقابة ..

وما لبث طبيب الاسنان أن أضاء المصباح .. فبهر ضوؤه الساطع عينى العمدة حتى اغمضهما وفتح فمه ... وكان الالم قد توقف ..

حدد الطبيب مكان الضرس المضرور مستخدما أصبعه السبابة لابعاد الخد الملتهب ومعدلا وضع المصباح المتحرك باليد الاخرى ،

غير مكترث تماما بالنفس القلق للمريض ... وبعد هذا ، شمر عن ذراعه حتى المرفق ، واستعد لخلع الضرس ...

سرعان ما أطبقت يد العمدة على معصمه قائلا :

ـ المخدر !..

ولاول مرة تلاقت أعينهما ... فقال الطبيب بنعومة :

ـ أنتم تقتلون الناس بلا مخدر !..

لم يلاحظ العمدة أى جهد لتخليص اليد الممسكة بملقط الخلع ... وقال :

ـ هات المخدر ! ..

وفى نفس الوقت حرك الجنـــدى الواقف فى الركن بندقيته فى اتجاههما وسمع كلاهما الصوت واضحا .. فقال الطبيب :

ـ لنفرض انه لا يوجد أى مخدر ...

فتخلى العمدة عن معصـم الرجل وقال وهو يفحص الاشـياء المبعثرة :

ـ لابد من وجوده ...

جعل الطبيب يراقبه فى شىء من الرثاء ... وسالبث أن دفع رأسه الى الخلف فوق المسند وقد لاحت عليه علائم نفاد الصبر لاول مرة ، وقال :

ـ لا تكن أبله ، يا حضرة الملازم ... مع وجود خراج مثل هذا ، لا ينفع أى مخدر ...

وفيما بعد ، بعد أن قاسى العمدة أبشع لحظة فى حياته ، مالبث أن خفف من تأزم عضلاته ، وبقى فى الكرسى منهك القوى لا يعرف للوقت حسابا ... وقد سمع الطبيب يشغل نفســه لدى حوض الغسيل ... ثم سمعه وهو يعيد الادراج الى مكانها ويلتقط بعض الادوات من الارض ...

نادى أخيرا :

ـ روفيرا ... قل لجونزاليز أن يدخل وتقوم معه بالتقاط الاشياء من الارض الى أن يعود المكان الى حالته الاولى ...

امتثل الجندى ... وأخذ الطبيب قطنا بملقطه وغمسه فى سائل بلون الحديد وغطى فراغ الضرس ... فشعر العمدة بشىء كاللهب عند السطح ... وبعد أن أقفل الطبيب فمه استمر مسمرا نظراته فى السقف ، معلقا سمعه بصوت رجلى البوليس وهما يحاولان أن

بعيدا من الذاكرة ترتيب المكتب كما كان ... ودق الناقوس مؤذنا بالثانية ... وبعد لحظة أومأ العمدة الى رجاله باشارة كي يعودوا الى الثكنات ...

وفي خلال ذلك ظل الطبيب بجانب الكرسي ... وبعد انصراف رجال البوليس اخرج قطعة القطن من اللثة ... ثم فحص داخل الفم بواسطة المصباح ، وضبط وضع الفكين مرة ثانية ، ثم أبعد الضوء ... وهكذا انتهت المعمعة ...

قال العمدة :

ـ ناكر للجميل !...

وضع الطبيب يديه في جيوب « روبه » وتراجع خطوة الى الخلف لكي يدعه يمر ... بينما استطرد العمدة قائلا وهو يبحث عنه بعينين خلف دائرة الضوء :

ـ كانت الاوامر تطالب بأن يسوى بيتك بالارض !...

كانت هناك تعليمات قاطعة بأن « نعثر » على أسلحة وذخائر ووثائق بتفصيلات مؤامرة على نطاق الجمهورية ...

وركز نظراته على الطبيب واضاف :

ـ كنت اظن انني افعل الصواب بعصياني لهذه الاوامر ... لكنني كنت مخطئا ... ان الظروف قد تغيرت الآن ... والمعارضة لها ضمانات ، وكل انسان يعيش في سلام ، ومع ذلك فأنت مستمر في التفكير كمتآمر ...

مسح الطبيب وسادة الكرسي بكمه وأدارها على الجانب الآخر الذي لم ينله الدمار ...

واستطرد العمدة قائلا وهو يشير الى الوسادة دون أن يبدي أي التفات لتلك النظرة المتأملة التي اجالها الطبيب في خده :

ـ والآن فان الامر موكول الى حكومة البلدة لدفع تكاليف اصلاح كل هذا العطب ، وباب الشارع المحطم ايضا ... كل هذا سيكلف الكثير ، وكله بسبب عنادك ...

فلم يزد الطبيب ان قال :

ـ تمضمض بماء الحلبة ...

الفصل الرابع

استعان القاضي أركاديو بالقاموس الموجود فى مكتب التلفراف لان قاموسه كانت تنقصه بعض الاحرف ... فلم يجد مايعنيه على حل لغز عبارة « الملصقات الفاحشة » ، لان المصطلح الذى عثر عليه فى القاموس مرادفا للعبارة كان يشير الى كلمة « باسكان » ، وقد اتضح انها اسم صانع أحذية فى روما القديمة اشتهر بالاهجوان الفاحشة التى كان يكتبها ضد كل انسان ... ومازال عليه أن يجد التكييف القانونى لفحش أو سباب مجهل يوضع على باب بيت فى جنح الظلام ... وعلى الرغم من ذلك لم يشعر القاضي بخيبة أمل .. ففى غضون الدقيقتين اللتين قضاهما فى ذلك البحث ، شعر لاول مرة فى أعوام كثيرة بالراحة التى تلابس من يؤدى الواجب ..

وما أن رآه وكيل مكتب التلفراف يعيد القاموس الى مكانه بين أكوام اللوائح والتعليمات التلفرافية والبريدية حتى قطع ارسال برقية كانت بيده ، ثم تقدم الى القاضي وهو يخلط ورقات اللعب الثلاث ، مستعدا لممارسة أحدث اللعبات الشعبية ، وتخمين الورقة الرابحة ... بيد أن القاضي أركاديو لم يعره أى التفات ، واعتذر قائلا :

ـ انا مشغول جدا اليوم ...

وخرج الى الشارع المتلظى بالحرارة ...

وعندما وصل الى مكتبه وجد العمدة ينتظره بمشكلة أخرى .. فقد حدث نتيجة للانتخابات الاخيرة أن البوليس قد صادر ودمر الوثائق الانتخابية الخاصة بحزب المعارضة ، وأصبحت الاغلبية من سكان البلدة تنقصهم أية وسيلة لاثبات الهوية ...

واختتم العمدة كلامه فاتحا ذراعيه :

ـ ان هؤلاء الناس الذين ينقلون بيوتهم ، أصبحوا لا يعرفون حتى اسماءهم ...

كان بوسع القاضي أركاديو أن يفهم أن وراء الذراعين المفتوحين حزنا صادقا .. لكن مشكلة العمدة كانت يسيرة : فكل ما كان يتعين عليه أن يفعله هو أن يطلب تعيين موظف سجل مدنى ... بل ان سكرتير المحكمة زاد هذا الحل تبسيطا بقوله :

ـ كل مايلزم هو المطالبة بارساله ... فقد تم تعيينه فعلا منذ سنة ...

تذكر العمدة ... فمنذ أشهر سابقة ، عندما أبلغوه بتعيين موظف للسجل المدنى ، بعث بمكالمة تليفونية للحكومة استفهم فيها كيف يستقبل هذا الموظف ، فردوا عليه بهذه العبارة : « بالرصاص » .. أما الآن فان الاوامر التى ترد كانت مختلفة ... وهكذا التفت الى السكرتير ويداه فى جيوبه قائلا :

ـ ابعث بمكاتبة ...

أحدث صليل الآلة الكاتبة حركة مجلجلة فى المكتب ، رن صداها فى كيان القاضى اركاديو ... وشعر فى نفسه بالخواء ... فأخرج سيجارة مفضضة من جيب قميصه وأدارها بين راحتى يديه قبل اشعالها ... وبعدها استلقى فى مقعده الى آخر مدى ، ثم قال وهو يزن كل كلمة قبل أن يفوه بها :

ـ لو كنت فى مكانك ، اطلبت أيضا تعيين نائب للأمن العام ..

وبعكس ماكان يؤمل ، فان العمدة لم يرد على الفور ... فقد نظر الى ساعته ، لكنه لم يتطلع الى الوقت ... وانما اعتمد على قرائن احواله الخاصة بأنه لايزال الوقت منفسحا حتى موعد الغداء ... وعندما تكلم ، كان كلامه خلوا من الحماس ، اذ لم يكن على دراية بالاجراءات التى يتطلبها تعيين نائب للأمن العام ...

وعندئذ تولى القاضى اركاديو البيان قائلا :

ـ جرى العرف على أن يكون تعيين نائب الامن العام عن طريق مجالس البلدة ... ونظرا لعدم وجود هذا المجلس فى الوقت الحالى فان الحكومة بحكم حالة الطوارىء تخولك تعيين النائب ...

انصت العمدة وهو يوقع المكاتبة بامضائه دون أن يقرأها ... ومالبث أن أبدى تعقيبا حماسيا ، ولكن السكرتير كانت له ملاحظة بصدد الاقتراح الذى عرضه رئيسه ، فأصر القاضى اركاديو على رأيه باعتبار أنه اجراء طوارىء ، فى ظل حكومة طوارىء ...

فقال العمدة :

ـ يعجبنى هذا الكلام ...

ونزع « الكاب » عن رأسه لكى يروح به ... ومن كيفية الترويح استخلص القاضى اركاديو أن العمدة لم ينته بعد من التفكير .. فنفض رماد سيجارته وانتظر ...

سأل العمدة :

ـ هل يمكن التفكير فى مرشح ؟ ...

كان الواضح انه يوجه السؤال الى السكرتير ... فردد القاضى الكلمة مغمضا عينيه :

ـ مرشح ؟ ..

فتولى السكرتير الرد قائلا :

ـ لو كنت مكانك ، لرشحت رجلا نزيها ...

لم يفت القاضى هذا الاجتراء ، ولكنه قال :

ـ هذا أكثر من واضح ...

وجعل ينظر الى الرجلين بالتعاقب ...

فقال العمدة :

ـ مثل من ؟...

فأجاب القاضى مفكرا :

ـ لا يمكننى ان افكر فى أى شخص الآن ...

واتجه العمدة الى الباب قائلا :

ـ فكروا فى الموضوع ... وعندما ننتهى من مشكلة الفيضان ، سندخل فى مشكلة النائب ...

وجلس السكرتير منحنيا فوق الآلة الكاتبة الى أن تلاشى وقع اقدام العمدة ، وعندئذ قال :

ـ هو مجنون ... منذ سنة ونصف هشموا راس النائب بكعوب البنادق ، وهاهو الآن يبحث عن مرشح لاسناد الوظيفة اليه ...

وعند هذا الحد وثب القاضى اركاديو قائما وقال :

ـ أنا خارج ... لا اريد أن تفسد على غذائى بحكاياتك المرعبة ..

وانصرف من المكتب ... وبدا له كأن جو الظهيرة مشوب بالشؤم ... وقد لاحظ السكرتير هذا وكان فى طبعه ميل للخرافات ... وهكذا أسرع بدوره الى وضع القفل على الآلة الكاتبة ولحق بالقاضى اركاديو عند باب مكتب التلغراف ، حيث كان القاضى مهتما بمعرفة ما اذا كان سر لعبة « الثلاث ورقات » ينفع فى لعبة البوكر ... ولكن وكيل المكتب رفض كشف السر ... وانما راح يكرر اللعبة مـــرارا لكى يهيىء للقاضى اركاديو فرصة لاكتشاف السر بنفسه .. وراقب السكرتير العملية أيضا حتى استخلص لنفسه النتيجة أما القــاضى أركاديو فلم يكلف نفسه حتى عناء النظر الى « الثلاث ورقات » ، اذ كان يعلم انها نفس الورقات التى كان يختار احداها اعتباطا ، وان

وكيل مكتب التلغراف كان يقدمها له دون أن ينظر هو فيها أيضا .. ولكنه قال للقاضي :

ـ المسألة مسألة سحر ...

على أن القاضي اركاديو لم يكن يفكر في هذه اللحظة الا في محنة عبور الشارع ... وعندما استسلم للمشي تعلق بذراع السكرتير وأرغمه على أن يغطس معه في جو هذا الاتون المتقد الذى كان أقرب الى زجاج منصهر ... وعندما وصلا الى ظل الرصيف تولى السكرتير شرح لغز « الثلاث ورقات » ، وكان من البساطة الى حد أشعر القاضي بالحرج والغضاضة ... وسارا فترة صامتين ، الى أن قال القاضي فجأة مغتاظا :

ـ أنت طبعا لم تتعقب مسألة الملصقات ...

تردد السكرتير برهة قبل أن يجيب :

ـ هذه مسألة صعبة .. ان معظم « الملصقات الفاحشة » تنزع وتمزق قبل الفجر ...

فقال القاضي أركاديو :

ـ هذا لغز آخر لا أفهمه ... أنا لايمكن أن أحرم نفسي من النوم بسبب ملصق لم يقرأه أحد قط ...

فقال السكرتير وقد توقف بسبب وصوله الى بيته :

ـ هذا هو الكلام المضبوط ... ليس الذى يمنع الناس من النوم هو « الملصقات الفاحشة » ، وانما هو الخوف من الملصقات ..

وعلى الرغم من ذلك فان القاضي أركاديو أراد أن يعرف كل المعلومات التي جمعها السكرتير في هذا الصدد ... فعدد له الحالات مدعمة بالاسماء والتواريخ ... فتبين أنها احدى عشرة حالة في خلال سبعة أيام ... وبدا أنه لا صلة بين الاسماء الاحد عشر ... وقد اتفقت بيانات أولئك الذين شاهدوا « الملصقات الفاحشة » على أنها كتبت بفرشاة بحبر أزرق وبحروف مطبعية اختلطت فيها الاحرف الكبرى بالصغرى وكأن كاتبها طفل ، وكان الهجاء من السخف بحيث بدا أن الأخطاء متعمدة .. ثم انها لم تكشف عن سر ، فكل ما قيل في الملصقات كان معروفا مشاعا منذ حين ..

وقد ظل القاضي أركاديو يتداول كافة التخمينات المحتملة الى أن ناداه التاجر الشرقي من دكانه قائلا :

ـ هل معك بيزو ؟..

لم يفهم القاضي أركاديو ... لكنه أخرج جيوبه باطنا لظاهر ، فلم

يكن معه سوى خمسة وعشرين سنتافو وعملة أمريكية كان محتفظا بها كتميمة منذ أيام دراسته الجامعية ... فأخذ التاجر القطعة الاولى قــائلا :

ـ اشتر مني ماتشاء وادفع الباقي حين تشاء ...

وجعل التاجر العملة ترن فى درج نقوده الخاوى قائلا :

ـ لا أريد أن يحل وقت الظهر دون أن استفتح ! ...

وهكذا ما أن دقت الثانية عشرة حتى دخل القاضى أركاديو الى بيته محملا بالهدايا لزوجته ... وجلس على الفراش لتغيير حذائه بينما لفت الزوجة حول قوامها قماش الحرير المطبوع ، وتصورت ماسيكون عليه حالها بعد أن تضع مولودها ... وعندئذ منحت زوجها قبلة على أنفه .. فحاول أن يتجنبها ... ولكنها هوت عليه بجسدها فوق الفراش .. ولبثا هنيهة دون حراك .. فما عتمت أن رفعت رأسها وغمغمت قائلة من خلال أسنانها المطبقة :

ـ انتظر حتى أغلق الباب ...

انتظر العمدة الى أن تم بناء آخر بيت ...

فى خلال عشرين ساعة بنوا شارعا كاملا ، متسعا وعاريا ، انتهى مرة واحدة عند المدافن ... وبعد أن عاون العمدة فى وضع أثاث البيوت ، عاملا كتفا لكتف مع أصحابها ، مختنقا من الحر والعرق ـ دخل الى أقرب مطبخ ...

كان الحساء يغلى فوق موقد حجرى على الارض ... ومالبث أن رفع غطاء اناء الفخار وتشمم البخار برهة ... وعن كثب من الموقـد وقفت امرأة ناحلة ذات عينين واسعتين مسالمتين تراقبه صامتة ..

قال العمدة :

ـ هذا وقت الغداء ...

لم ترد المرأة ... فما كان من العمدة الا أن اغترف لنفسه صحفة من الحساء بغير دعوة ... وعندئذ ذهبت المرأة الى غرفة النـوم وجاءت بكرسي وضعته بجانب العمدة لكى يجلس عليه .. وفيما كان يتناول الحساء راح يفحص حوش الدار بشيء من الرهبة والوجل .. فبالامس فقط كانت رقعة الارض كلها جرداء خاوية ... أما الآن فهذا « غسيل » معلق لكى يجف ، وخنزيران يلغان فى الوحل ..

قال لها العمدة مرة ثانية : يمكنكم أيضا زراعة بعض الخضر .

فردت المرأة قائلة دون أن ترفع بصرها :

ـ لو فعلنا لاكلتها الخنازير ...

ـ يمكنكم أيضا زراعة بعض الخضر ...

ولم تلبث المرأة أن وضعت له فى نفس الصحفة قطعة من اللحم المسلوق وشريحتين من نبات الكسافا « مثل القمح » ونصف ثمرة موز هندى وحملتها الى المائدة ... وفى بادرة الكرم هذه ، كانت المرأة تبدى بطريقة سافرة جلية فتورا بالغا لا يخفى عن العين ... أما العمدة فقد تلقى هذا بالابتسام ... والتمس عينى المرأة بعينيه ، قائلا :

ـ الطعام هنا يكفى الكل ...

فقالت المرأة دون أن تنظر اليه :

ـ أدعو الله أن يبتليك بعسر الهضم ...

تجاوز العمدة عن هذا الدعاء الشنيع ... وتفرغ بكليته لغدائه ، غير عابىء بمسيل العرق المتدفق اسفل عنقه ... ولما فرغ رفعت المرأة الصحفة الخالية ومازالت لا تنظر اليه ... فسألها العمدة :

ـ الى متى أيها الناس ستبقون على هذا المسلك ؟..

فأجابت المرأة دون أن تغير جمودها :

ـ الى أن تعيدوا لنا أنتم ياناس الموتى الذين قتلتموهم ، الى الحياة ...

فقال العمدة شارحا مفسرا :

ـ الحال مختلف الآن ... ان الحكومة الجديدة مهتمة برفاهية مواطنيها ... وأنتم ياناس ، من الناحية الاخرى ...

قاطعته المرأة قائلة :

ـ أنتم نفس الناس ، ونفس ...

فعاجلها العمدة باصرار قائلا :

ـ ان منطقة كهذه ، نبيت فى مدى أربع وعشرين ساعة ، هى شىء لم تشهدوه من قبل أبدا ... اننا نحاول أن نبنى بلدة لائقة ..

رفعت المرأة « الغسيل » النظيف عن الحبل وحملته الى غرفة النوم .. فظل العمدة يتبعها بنظراته الى أن سمعها ترد بقولها :

ـ ان هذه البلدة كانت لائقة قبل مجيئكم أيها الناس ..

لم يشأ العمدة أن ينتظر القهوة ، وقال :

ـ ناكرون للجميل ... اننا نعطيكم أرضا ومع ذلك لا تزالون تشكون ...

لم ترد المرأة ... ولكن عندما اجتاز العمدة المطبخ فى طريقه الى الشارع ، غمغمت المرأة قائلة :

ـ سيكون حالنا هنا أسوأ ... لكننا سوف نظل نتذكركم أيها الناس بموتانا الراقدين هناك ...

***

حاول العمدة أن ينام فترة القيلولة انتظارا لوصول الزوارق النهرية .. بيد أنه لم يستطع مغالبة الحر .. وكان ورم خده قد بدأ يخف ... ومع ذلك لم يشعر بأنه عوفى ... وظل يتبع بعين الخيال مجرى النهر مدى ساعتين ، منصتا الى طنين ذبابة الحصاد داخل الغرفة .. وفى خلال ذلك لم يفكر فى أى شىء ...

وعندما سمع صوت محركات الزوارق خلع ملابسه وجفف عرقه بمنشفة وغير كسوته الرسمية ... ثم بحث عن مذبته وأمسك بها بين ابهامه وسبابته وخرج الى الشارع .. ومن بين الجمهور المحتشد الذى كان فى انتظار وصول الزوارق خرج صبى نظيف حسن الثياب قطع طريق العمدة ببندقية آلية من البلاستيك ... فأعطاه العمدة « المنشة » ...

وبعد لحظة كان جالسا فى دكان التاجر الشرقى يراقب الزوارق وهى تلقى مراسيها ... وفى مدى عشر دقائق كان الميناء النهرى يعج بالحركة ... وشعر العمدة بثقل فى معدته ولمسة صداع ، وسرعان ماتذكر « دعاء » المرأة عليه ... ومالبث أن انحاز الى السكينة واخذ يراقب ركاب الزوارق وهم يهبطون الى البر محركين عضلاتهم بعد ثمانى ساعات من عدم الحركة ... وفى هذا غمغم قائلا :

ـ مشكلة بعد مشكلة ..

ومالبث التاجر أن استرعى نظره الى شىء جديد : هو وصول سيرك الى البلدة ... وتحقق العمدة من هذا لدى رؤية الاعمدة الخشبية والقماش الملون المكدسة فوق سطح الزورق ، فضلا عن وجود امرأتين متشابهتين تماما متشحتين برداءين متماثلين تكسوهما زهور مطبوعة ...

غمغم العمدة معقبا :

ـ صحيح ... هذا سيرك فعلا ...

أخذ التاجر يتحدث عن الحيوانات المفترسة وعن العاب الحواة ، بيد أن العمدة فكر فى السيرك بطريقة مختلفة ... فقد جلس مادا

ساقيه ينظر الى طرف حذائه العالى ، قائلا :
ـ البلدة فى تقدم ...
وكف التاجر الشرقى عن الترويح بالمروحة قائلا للعمدة :
ـ هل تعرف بكم بعت اليوم ؟..
لم يجازف العمدة بأى تخمين ، وانتظر الرد ... فقال التاجر :
ـ بخمسة وعشرين سنتافو ...
وفى هذه اللحظة ابصر العمدة وكيل البريد يفتح حقيبة البريد الوارد ويعطى الدكتور جيرالدو رسائله ... فناداه العمدة .. لقد ورد البريد الرسمى فى مظروف مميز .. ففض العمدة أختام الشمع ووجد مكاتبات روتينية ومطبوعات دعاية لنظام الحكم القائم ... وعندما فرغ من الاطلاع عليها كان رصيف الميناء قد أخلى من صناديق البضائع الواردة والدجاج المجمد ومنقولات السيرك الغريبة ... وفى خلال ذلك بدأ الغسق ... فمالبث العمدة أن نهض قائما وهو يتنهد قائلا :
ـ خمسة وعشرون سنتافو !..
فردد التاجر الكلمات بصوت متحجر :
ـ خمسة وعشرون سنتافو بالتمام والكمال ...
وظل الدكتور جيرالدو يراقب تفريغ شحنة الزوارق حتى النهاية ... وكان هو الذى لفت نظر العمدة الى امرأة متينة البنيان مهيبة الطلعة تكسو ذراعيها أساور كثيرة ... وبدا أنها كانت تنتظر شخصية ذات شأن وهى تحت مظلتها الكثيرة الالوان ... فلم يتوقف العمدة لكى يفكر فيمن يكون القادم ، وقال :
ـ لابد أنها مروضة الوحوش ...
فقال الدكتور جيرالدو وهو يضغط على الكلمات بصفين من الاسنان الصناعية :
ـ هى حماة سيزار مونتيرو ...
تابع العمدة سيره متباطئا ... ونظر الى ساعته ... كانت الرابعة الا ثلثا .. وعند باب الثكنات ابلغه الحارس ان الاب انجيلو ظل ينتظر مدى نصف ساعة ، وأنه سيعود فى الساعة الرابعة ..
ولما عاد الى الشارع مرة أخرى وهو لا يعرف ماذا يفعل ، لمح طبيب الاسنان فى نافذة مكتبه ، فاتجه اليه يطلب منه ثقابا لسيجارته ... فأعطاه ماطلب وهو ينظر الى الخد الذى مازال مورما ... فقال العمدة :

ـ حالتى تمام التمام ...

وفتح فمه .. فنظر الطبيب متفحصا ، ثم قال :

ـ توجد فراغات كثيرة لابد من ملئها ...

عدل العمدة المسدس المعلق الى وسطه ، وقال :

ـ سأحضر قريبا ...

ـ تعال كلما شئت ، لكى ترى ان كانت رغبتى فى ان تلقى حتفك فى بيتى سوف تتحقق ...

ربت العمدة على كتفه وقال متبسطا :

ـ لن يكون هذا ...

ثم أضاف قائلا وهو مفتوح الذراعين :

ـ ان أسنانى فوق سياسة الحزب ...

***

قال الاب انجيلو لزوجة القاضى اركاديو :

ـ اذن لا تريدين أن يعقد زواجك رسميا ؟..

فمدت ساقيها قائلة :

ـ لا أمل فى هذا البتة يا أبتاه .. وحتى مع قرب أن يكون لى ولد فالامل أقل ...

أشاح الاب انجيلو بنظره الى ناحية النهر ، حيث شوهدت بقرة غريقة يجرفها التيار وتعلوها طيور الباز ...

فقال الاب :

ـ لكنه سيكون ابنا غير شرعى ...

فقالت :

ـ هذا لا يهم .. ان أركاديو يعاملنى الآن معاملة طيبة .. أما اذا جعلته يتزوجنى شرعيا فسوف يشعر بالقيد الذى يكبله بى ، ومن ثم يجعلنى أدفع الثمن ...

كانت تتكلم وقد خلعت القبقاب ورفعت قدميها الى عارضة المقعد الصغير الذى جلست عليه منفرجة الركبتين وتركت المروحة فى حجرها وشبكت ذراعيها . فوق بطنها المتضخم ، ثم كررت قولها عندما وجدت القس قد التزم الصمت .

ـ لا أمل فى هذا البتة يا أبى ... ان دون ساباس قد اشترانى كجارية نظير مائتى بيزو ، وامتص رحيقى عن آخره فى ثلاثة شهور وبعد ذلك رمانى فى الشارع مثل كلب .. ولولا أن أركاديو أخذنى عنده لتضورت جوعا ...

ولاول مرة تطلعت الى عينى القس ، ثم اضافت :
ــ ... أو لاصبحت مومسا ...
لقد ظل الاب انجيلو يلح عليها بعقد الزواج طوال ستة اشهر .. ومالبث الآن ان قال :
ــ الواجب ان تجعليه يعقد زواجك ويؤسس اسرة شرعية .. اما هذه الطريقة ، الطريقة التى عليها حياتك الآن ، فانها لاتجعلك فقط فى موقف محفوف بالمخاطر ، بل هى أيضا مثل سيىء للبلدة ...
فقالت :
ــ الافضل أن نفعل الافعال بصراحة ... الآخرون يفعلون نفس الشيء ولكن متسترين باطفاء النور ... الم تقرا الملصقات الفاحشة ؟
فأجاب القس :
ــ هذه ثرثرة وأقاويل ... عليك ان تضفى الصفة الشرعية لموقفك وتبعدى نفسك عن دائرة الالسنة الثرثارة المتقولة . ..
فقالت :
ــ أنا ؟.. أنا غير مجبرة على ابعاد نفسى عن دائرة اى شيء ، لاننى أفعل كل شيء فى وضح النهار ... والدليل على هذا أنه لا احد قد ضيع وقته بوضع أى ملصقات فاحشة على باب دارى ــ فى حين أن كل الناس المحترمين فى الميدان قد وضعت على أبوابهم هذه الملصقات .
فقال القس :
ــ هذه حماقة منك ... ان الله قد هيأ لك حظا حسنا اذ اعطاك رجلا يحترمك ... ومن أجل هذا السبب ذاته عليك أن تتزوجى شرعيا وتسبغى هذه الصفة على بيتك ...
فقالت له :
ــ أنا لا افهم هذه الامور .. لكن على اى حال ، فبالوضع الذى أنا فيه قد تهيأ لى مكان أنام فيه وطعام وفير آكله ...
ــ وماذا لو هجرك ؟ ..
فعضت على شفتها .. ثم ابتسمت ابتسامة غامضة وهى تقول :
ــ انه لن يهجرنى يا ابى .. انا اعرف لماذا اقول لك هذا ..
بيد ان الاب انجيلو لم يعتبر انه انهزم هذه المرة .. وقد أوصاها أن تأتى على الاقل لحضور القداس .. فأجابت بأنها قد تفعل هذا (يوما من الايام) .. ومضى القس فى مسيرته انتظارا لموعده مع العمدة .. وقد استوقفه احد التجار الشرقيين مسترعيا نظره الى تحسن الطقس ، بيد انه لم يعبأ به .. وكان اهتمامه موجها الى

عملية تفريغ أدوات السيرك ونقل الوحوش القلعة فى فترة الاصيل هذه ذات الوضح النادر ... وقد لبث عن كثب الى أن حانت الساعة الرابعة ...

وكان العمدة منصرفا من عند طبيب الاسنان عندما أبصر الاب انجيلو قادما ... فقال له وهو يصافحه :

ـ دقة فى المحافظة على المواعيد ...

فقال الاب انجيلو :

ـ وتصميم على صعود سلالم الثكنات الراسية ...

ـ حتى لو كانت نهاية الدنيا ...

وبعد دقيقتين سمح للأب انجيلو بدخول غرفة سيزار مونتيرو ...

وبينما كان الاب انجيلو يمارس اجراءات الاعتراف جلس العمدة فى الردهة يفكر فى السير ويتخيل مشاهدة : امرأة تتعلق بأسنانها فى الهواء على ارتفاع عشرين قدما ، ورجل فى كسوة زرقاء موشاة بالذهب يدق طبلا مدويا ... ولم يمض الا نصف ساعة حتى خرج الاب انجيلو من غرفة سيزار مونتيرو ، فسأله العمدة :

ـ هل تم كل شيء ؟..

فقال القس :

ـ أنتم ياناس ترتكبون جرما ... ان هذا الرجل لم يأكل منذ خمسة أيام ... ان بنيته فقط هى التى مكنته من البقاء على قيد الحياة ...

فقال العمدة بهدوء :

ـ هذا مايريده ..

فقال القس بقوة :

ـ هذا غير صحيح ... انك امرت بألا ينال طعاما ...

فقال العمدة معترضا :

ـ حذار يا ابتاه ... أنت تنتهك سرية الاعتراف ..

فرد القس قائلا :

ـ ليس هذا جزءا من اعترافه ...

فوثب العمدة قائما ... وقال وهو يضحك فجأة :

ـ لا تستسلم للانفعال ... اذا كانت المسألة تقلقك الى هذا الحد فسنعمل على تسويتها حالا ...

ونادى جنديا وأمره باحضار طعام من الفندق لسيزار مونتيرو ، قائلا :

ـ كلهم بارسال دجاجه كاملة ، سمينة وممتازة ، على طبق طاطس ، وطبق سلطة ...

وأضاف موجها كلامه للقس :

ـ وكل هذا على نفقة الحكومة يا ابى ... وهكذا ترى كيف تغيرت الاحوال ...

أطرق الاب انجيلو ، وقال :

ـ متى ترسلونه من هنا ؟..

فأجاب العمدة :

ـ ان الزوارق ستبحر غدا ... اذا استمع الى صوت العقل هذه الليلة ، فسوف يذهب غدا ... كل ماعليه هو أن يدرك اننى احاول أن أسدى اليه معروفا ...

فقال القس :

ـ معروف مكلف ...

فقال العمدة :

ـ لا يوجد معروف لا يكلف الانسان الذى يناله بعض المال ..

وركز العمدة عينيه فى عينى الاب انجيلو الزرقاوين الصافيتين ، واضاف قائلا :

ـ املى أن تكون جعلته يفهم هذه الامور ...

لم يرد الاب انجيلو ... واتجه الى السلالم وألقى السلام بنبرات جامدة ... وما لبث العمدة ان اجتاز الردهة ودخل الى غرفة سيزار مونتيرو دون أن يطرق الباب ...

كانت غرفة بسيطة ، ليس بها سوى سرير حديدى وحوض غسل ... وكان سيزار مونتيرو ممددا فوق السرير وهو غير حليق الوجه وبنفس الملابس التى كان يرتديها حينما خرج من بيته يوم الثلاثاء فى الاسبوع الفائت ... بل انه لم يحرك حتى عينيه عندما سمع العمدة يقول له :

ـ الان وقد سومت موقفك امام الله ، فليس هناك شيء أكثر عدلا من أن تفعل نفس الشيء معى ...

وجذب العمدة مقعدا الى الفراش واداره وجلس مسندا صدره الى ظهر المقعد ... اما سيزار مونتيرو فقد ركز اهتمامه على الواح السقف ... ولم يكن يبدو عليه اى قلق بالرغم من ان الحوار الطويل الذى اداره فيما بينه وبين نفسه قد ترك آثاره على اطراف فمه ... وما لبث أن سمع العمدة يقول :

ـ أنت وأنا ، لسنا بحاجة الى اللف والدوران ... انك مرحل غدا ... واذا كنت محظوظا ففي خلال شهرين أو ثلاثة سيصل الينا محقق خاص ... والامر موكول الينا لكي « نملأه » ونوجهه التوجيه المطلوب ... وعندما تعود الينا الزوارق في الاسبوع القـــادم ، فسوف ترجع الينا مقتنعا بأنك أتيت عملا طائشا ...

وتوقف العمدة ... بيد أن سبزار مونتيرو ظل على جموده ، فمضى العمدة قائلا :

ـ وفيما بعد ـ بين المحاكم والمحامين ـ سوف يعتصرون منــك عشرين الف بيزو على الاقل ... وربما أكثر من هذا اذا بدا للمحقق الخاص ان يخبرهم بأنك مليونير ...

لم يلبث سبزار مونتيرو أن أدار راسه الى ناحيته ... كـــانت حركة يسيرة لا تدرك ، لكنها جعلت السرير يئز ...

واستطرد العمدة قائلا بصوت الناصح الروحاني :

ـ وباختصار ، وبعد المحاورات والمداورات ، سوف يتحفونك بسنتين ، اذا سارت الامور معك على مايرام ...

أحس العمدة انه محل النظر والفحص من قمة راسه الى أخمص قدميه .. وعندما استقرت نظرات مونتيرو الفاحصة على عينيه ، لم يتوقف عن الكلام ، وان غير لهجته قائلا :

ـ ان كل ماتملك ، أنت مدين به لي .. كانت الاوامر الصادرة لي هي أن أستأصل وجودك ... كانت هنـــاك اوامر لقتلك في كمين ومصادرة قطعان مواشيك ، حتى تجد الحكومة الوسائل للـــوفاء بالنفقات الضخمة التي اقتضتها الانتخابات في طول البلاد وعرضها .. وانت تعرف ان العمد الآخرين قد فعلوا هذا في البلدان الاخرى ... اما نحن هنا ، فقد عصينا الاوامر ...

في هذه اللحظة تبين العمـــــدة أول بادرة تشير الى أن سبزار مونتيرو اخلد الى التفكير ... ففتح ساقيه ، ومال بذراعيه على ظهر المقعد ، واستطرد يقول :

ـ مامن سنتافو واحد مما دفعته ثمنا لحياتك دخل جيبي ... كل شيء تم انفاقه على تنظيم حملة الانتخابات ... والآن فقد استقـر عزم الحكومة الجديدة على كفالة السلام وضمانات الامن لكل انسان ، وأنا وحدي أعاني الافلاس بمرتبي ، في حين انك غارور في الاموال .. فأنت الآن امام صفقة طيبة ...

بدا سيزار مونتيرو المهمة الشاقة وهي النهوض من رقدته ... وعندما وقف ، رأى العمدة نفسه ضئيلا وكاسفا وهو فى مواجهة هذا المارد العملاق ... وكانت نظراته مشوبة باللهف وهى تتابعه الى النافذة ، وقد غمغم قائلا :

ــ ... وهى فى الواقع افضل صفقة فى حياتك ...

كانت النافذة تطل على النهر ... فلم يكد سيزار مونتيرو يعرف معالمه ، وخيل اليه انه فى بلدة أخرى ، وأمام نهر آخر ... وسمع من خلفه صوت العمدة وهو يقول :

ــ اننى أحاول مساعدتك ... كلنا نعرف ان ما فعلت كان بدافع الشرف ، ولكن سيكون من الصعب اثبات هذا ... وانت قد أسأت التصرف بتمزيق القصاصة الفاحشة التى ألصقت على بابك ...

فى هذه اللحظة اجتاحت الغرفة رائحة قوية مقززة ، وقال العمدة :

ــ البقرة الغريقة ... لابد ان التيار حملها الى مكان قريب ..

ظل سيزار مونتيرو لدى النافذة ، غير مبال بالرائحة العفنة ... وكان الشارع خاليا من كل انسان .. وعند المرسى النهرى استقرت ثلاث زوارق ، انشغل بحارتها باقامة أراجيحهم استعدادا للنوم .. لكن الصورة سوف تختلف فى اليوم التالى ، عند الساعة السابعة صباحا : فعلى مدى نصف ساعة سيكون الميناء الصغير فى حالة اضطراب ، انتظارا لنقل السجين ...

لم يتمالك سيزار مونتيرو أن تنهد .. ودس يديه فى جيوبه .. وفى عزم وتصميم ، ولكن بغير عجلة ، كان جماع افكاره كلها فى كلمتين :

ــ كم تطلب ؟..

جاء الرد فى الحال :

ــ قيمة خمسة آلاف بيزو من المواشى الحولية ...

فقال سيزار مونتيرو :

ــ وفوقها خمسة عجول وليدة ... وعليك ترحيلى هذه الليلة ذاتها ، بعد نهاية العرض السينمائى ، فى زورق سريع ...

الفصل الخامس

اطلق الزورق صفارته ، وتحرك يمخر عباب النهر ، وأبصر الجمهور المحتشد على الرصيف والنساء المطلات من النوافذ روزاريو مونتيرو لآخر مرة وقد جلست بجانب امها فوق نفس صندوق الامتعـــة المعدنى الذى هبطت به الى البلدة منذ سبع سنوات .. وبدا للدكتور اوكتافيو جيرالدو وكان يحلق ذقنه فى نافذة مكتبه كأنها رحلة للعودة الى عالم الواقع ، وأن مامضى من هذه الاعوام كان أقـــرب الى الخيال ...

لقد شاهدها الدكتور جيرالدو عصر اليوم الذى هبطت فيـه الى البلدة فى ذلك العهد ، مرتدية زى المعلمة البالى ، والحذاء الرجالى ، تسأل على رصيف المرسى من يحمل بأقل أجر صندوق أمتعتهـا الى المدرسة ... وكان يبدو من طوالعها أنها على استعداد لكى تتقـدم بها السن دون أن يراودها أدنى طموح فى هذه البلدة التى لم تعرف باسمها لاول مرة ــ طبقا لما روته على لسانها ــ الا عندما أجـــريت القرعة بينها وبين زميلاتها المرشحات لشغل وظائف المعلمات فى المدارس الست المحددة ... وهكذا استقر بها المقام فى غرفة صغيرة بالمدرسة ليس بها أكثر من سرير حديدى وحوض غسيل ، مستغلة وقت فراغها فى تطريز مفارش المائدة وهى تطهى طعامها على الموقد الصغير ...

وفى ذلك العام ذاته ، فى عيد الميلاد ، التقت بسيزار مونتيرو فى حفل مدرسى ... وكان شابا أعزب جموحا مجهول الاصل ، اغتنى من تجارة الاخشاب حيث كان يعيش فى الغابة العذراء بين قطيع من كلابه الوحشية ولا يظهر فى البلدة الا فى مناسبات نادرة ، وهو دائما غير حليق الوجه ، منتعلا حذاءه العالى المعدنى الحوافى ، ومحتقبا بندقيته المزدوجة القصيرة ... فكأن هذا اللقاء كان بمثابة فوز آخر اصابته فى القرعة ..

بهذه الخواطر جرت أفكار الدكتور جيرالدو وهو يغطى ذقنـــه برغوة الصابون ، عندما انتزعته من ذكرياته رائحة مقززة أخذت عليه منافذ التنفس ...

فى هذه اللحظة تفرق سرب من جوارح الباز على الشاطىء المقابل ،

بعد أن أفزعته الامواج المتدافعة فى أثر الزورق المبتعد .. اما الرائحة العفنة فقد حومت حول الرصيف فترة ، مختلطة بنسيم الصباح ، بل امتدت حتى نفذت الى أعماق البيوت ...

ولم يتمالك العمدة أن هتف وهو فى شرفة غرفة نومه يراقب الطيور المتباعدة :

ـ يالها من رائحة شنيعة ... من بقرة لعينة !..

ولم يلبث ان غطى أنفه بمنديل وأغلق باب الشرفة ... فلم تذهب الرائحة وظلت جاثمة فى الداخل .. فعمد الى مرآة علقها فى مسمار وأنشأ يحاول بأتم حذر حلق خده الذى لم يزل ملتهبا بعض الشىء ... وبعد برهة جاء رئيس السيرك يطرق الباب ...

طلب اليه العمدة أن يجلس ، وأخذ يتأمله فى المرآة وهو يحلق .. كان يرتدى قميصا بمربعات سوداء وبيضاء ، وبنطلون ركوب منتفخ الساقين ، وبيده سوط راح يضرب به على ركبته ضربات منتظمة ..

وقال العمدة عندما فرغ من جذب الموسى فوق جذور الشعر الذى نبت فى اسبوعين من العذاب :

ـ اننى تلقيت حتى الان أولى الشكاوى منكم أيها الناس .. وهذا فى الليلة الماضية فقط ...

ـ وماهى هذه الشكاوى ؟..

ـ هى أنكم تبعثون بصبية لسرقة القطط ..

فقال رئيس السيرك :

ـ هذا غير صحيح ... ان كل قطة يؤتى بها الينا نشتريها بالرطل دون أن نسأل عن مصدرها ، لكى نطعم بها الوحوش ...

ـ هل تلقون بالقطط حية ؟ ..

ـ آه ... لا ... ان هذا قد يؤدى الى اثارة غرائز الحيوانات المتوحشة ...

التفت اليه العمدة بعد غسل وجهه وهو يدلكه بالمنشفة . ولم يكن حتى وقتئذ قد لاحظ أن الرجل يتختم فى معظم أصابعه بأحجار ملونة .. وقال له :

ـ لا بأس .. لابد لكم من التفكير فى طريقة اخرى .. اصطادوا التماسيح اذا أردتم ، أو استغلوا الاسماك التى توشك على الفساد فى هذا الجو ... لكن دعوا القطط ولا تعبثوا بها ...

هز رئيس السيرك كتفيه وتبع العمدة الى الشارع حيث كانت

جماعات من الرجال تتجاذب الحديث قرب رصيف الميناء بالرغم من رائحة البقرة الكريهة التى استقرت لدى الشاطىء المواجـــه بين العواسج والاغصان الشائكة ...

ولم يلبث العمدة أن صاح فى الناس :

ـ أنتم ياتافهين ! .. بدلا من الوقوف هكذا لاشغل لكم غيرالثرثرة مثل النساء ، كان الواجب عليكم أن تنشغلوا منذ أمس بتنظيم حملة لتعويم تلك البقرة بعيدا عن هنا !..

ولما أحاط به بعض الرجال عرض عليهم فكرته :

ـ خمسون بيزو للرجل الذى يأتينى بقرنى البقرة فى خـــلال ساعة ...

سرعان ماتفجر الهرج عند الرصيف .. وتواثب بعض الرجال الى قواربهم الصغيرة وهم يتنافسون مبتعدين وصياحهم يتردد صداه .

وقال العمدة مضاعفا المبلغ وقد تزايد حماسه :

ـ مائة بيزو !.. خمسون لكل قرن !..

وصحب رئيس السيرك الى نهاية الرصيف وظلا ينتظران الى وصل أول القوارب الى كثبان الشاطىء الآخر ... وعندئذ استدار العمدة الى الرجل باسما وقال له :

ـ هذه بلدة سعيدة ...

أومأ رئيس السيرك مؤمنا على كلام العمدة ، بينما استطرد هــذا قائلا :

ـ ان العيب الوحيد هنا هو أن الناس يفكرون كثيرا فى التفاهات لانهم لايجدون مايفعلونه ...

وفى هذه اللحظة بدأ بعض الاطفال يتجمعون حولهما ، فقال رئيس السيرك :

ـ عندكم السيرك هناك ...

ومالبث العمدة أن ساقه من ذراعه فى اتجاه الميدان ، قائلا :

ـ ماذا تفعلون فى السيرك ؟..

فأجاب الرجل :

ـ كل شىء ... عندنا عروض كاملة للاطفال ، وللكبار ..

فقال العمدة :

ـ هذا لا يكفى .. يجب أن يكون رسم الدخول فى مقـــدور الجميع ...

فقال رئيس السيرك :

ـ اننا سنراعى هذا أيضا ...

وانتقلا معا الى أرض فضاء خلف، دار السينما حيث كان يجرى اقامة الخيمه .. كان رجال ونساء صامتون منهمكين فى اخـــراج القلوع ذات الالوان الزاهية من الناقلات الضخمة المطوقة برســـوم خيالية ... وفى طواف العمدة مع رئيس السيرك بين زحام العاملين وهرجهم وهو يصافح كلا منهم يدا بيد ـ خيل اليه كأنه بين حطـام سفينة لا أول له ولا آخر ... وقد التقى بينهم بامرأة قوية البنيـة بادية العزيمة ، مذهبـة الاسنان ما أن صافحته حتى فحصت يده قائلة :

ـ هناك شيء غريب فى مستقبل حياتك ..

وهنا سارع العمدة بسحب يده عاجزا عن مغالبة احساس عارض بالانقباض ... فلمس رئيس السيرك ذراعها بطرف سوطه قائلا :

ـ دعى الملازم وشأنه ...

وصحب العمـــدة الى الجانب الخلفى للســـاحة ، حيث كانت الحيوانات .. وقال له :

ـ هل تؤمن بكل ماتقوله هذه المرأة ؟..

فرد العمدة قائلا :

ـ حسب الاحوال ...

فقال رئيس السيرك :

ـ انهم لم يقدروا أبدا على اقناعى ... عندما يعايش الانســـان مثل هذه الاشياء ينتهى به الامر الى تصديق شيء واحد هو الارادة البشرية ...

راح العمدة يتأمل الحيوانات التى كانت فى شبه حذر بسبب الحر ... وكان ينبعث من الاقفاص بخار حار لاذع ، وكان تنفس الوحوش الرتيب ذاته يحكى عن لون من الضنى واليأس ... ومالبث رئيس السيرك أن ربت بسوطه على أنف فهد وهو يتحفز للزمجرة .. فقال العمدة :

ـ ماهو الاسم ؟..

ـ ارسطو ...

فوضح العمدة سؤاله قائلا :

ـ اقصد اسم المرأة ..

فقال رئيس السيرك :

ـ آه .. اننا نسميها كاساندرا ، مرآة المستقبل ...

فاصطنع العمدة علائم الكآبة قائلا :

ـ كم اشتهى مثلها ...

فقال رئيس السيرك :

ـ كل شيء جائز ...

فتحت الارملة مونتيل نوافذ غرفة نومها مغمغمة :

ـ رجال مساكين ...

وعكفت على ترتيب منضدتها الليلية ، وأعادت المسبحة وكتاب الصلاة الى الدرج ، ومسحت نعلى شبشبها المخضر اللون فى جلد « الجاغوار » المبسوط أمام فراشها ... وبعد ذلك قامت بدورة كاملة فى الغرفة لاغلاق « التسريحة » وابواب دولاب الملابس الثلاثة ودولاب مربع يعلوه تمثال من المصيص للقديس رافائيل ... وفى النهاية أوصدت الغرفة ...

وفيما هى تهبط فى السلالم العريضة المبنية بالاحجار والمزدانة بالنقوش لم تتمالك أن فكرت فى روزاريو مونتيرو ومصيرها الغريب.. فعندما أبصرتها من فرجات شرفتها وهى تعبر الى رصيف الميناء بهدوء وعزم تلميذة المدرسة التى دربت على الا تتلفت براسها ـ بدا لها أن شيئا كانت بدايته منذ عهد طويل قد أشرف الآن على نهايته ..

ولما وصلت الى « البسطة » اشرفت على الحوش الملىء بسلع السوق الريفية ... ففى احد الجوانب قامت منصة فوقها انواع الجبن ملفوفة فى أوراق شجر طازجة ... وفى جناح خارجى تراصت أكياس الملح وقرب العسل ... وفى أقصى الخلف كان الاسطبل ببغاله وخيوله والسروج المعلقة فى العوارض الخشبية البارزة .. وكان البيت كله مشبعا بروائح الحيوانات المدجنة والجلود المدبوغة والاقصاب المطحونة ..

وفى المكتب صبحت على مستر كارميكل الذى كان يرص رزم البنكنوت على المنضدة وهو يدون المبالغ فى سجل الحسابات ... وعندما فتحت النافذة المطلة على النهر ، غمر ضوء النهار فى هذه الساعة التاسعة من الصباح غرفة المعيشة ، التى كانت مكتظة بمقاعد محشوة كبيرة ، وعلقت بها صورة مكبرة لجوزيه مونتيل حف باطارها اكليل جنائزى ... وقد فطنت الارملة الى رائحة العفن الآتية من

الخارج فلما وقع نظرها على القوارب الصغيرة المتنافسة على كثبان الضفة البعيدة ...
قالت :
ـ ما الذي يجري في الضفة الاخرى ؟..
فأجاب مستر كارميكل :
ـ انهم يحاولون تعويم بقرة ميتة ...
فقالت الارملة :
ـ هذه هي الحكاية اذن ! ... انني كنت طول الليـــلة احـلم بالرائحة ...
ثم أرسلت نظرها الى الرجل وهو منهمك في عمله ، واضافت :
ـ والآن فان كل مانحتاج اليه هو الطوفان ...
فقال مستر كارميكل دون أن يرفع نظره :
ـ انه بدأ منذ اسبوعين ...
فأيدته قائلة !
ـ هذا صحيح ... الآن قد وصلنا الى النهاية .. وكل ماهـو مطلوب أن نفعله هو أن يرقد الانسان في قبر في الشمس والظل الى أن يدركنا الموت ..
كان مستر كارميكل يستمع اليها دون ان يقطع عملياته الحسابية ... فأردفت الارملة تقول :
ـ كنا منذ سنوات نشكو من إنه لم يحدث اى شيء في هذه البلدة ... ثم فجأة بدأت الكارثة ، وكأن الله قد هيأ كل شيء ، بحيث ان مالم يحدث طوال تلك السنين بدأ يحدث على التوالى ...
تلفت مستر كارميكل لكي ينظر اليها وهو لدى الخزانة ، فرآها متكئة بمرفقيها على النافذة وعيناها مركزتان على الضفة المواجهة ، وكانت مرتدية ثوبا أسود طويل الاكمام وراحت تقرض أظافرها ... فقال لها :
ـ عندما يتوقف المطر ، سيتحسن كل شيء ...
فقالت متنبئة :
ـ لن يتوقف ... ان المصائب لا تأتي فـرادى ابدا ... الم تر روزاريو مونتيرو ؟...
لقد رآها . واجاب قائلا :

ـ كل هذا فضيحة لا معنى لها .. اذا اهتم الانسان بالملصقات الفاحشة ، فسينتهى به الامر الى الجنون ..

تنهدت الارملة ، وقالت :

ـ الملصقات الفاحشة !...

فقال مستر كارميكل :

ـ انهم وضعوا فعلا ملصقا على بابى ...

ـ أنت ؟..

فأجاب مؤكدا :

ـ نعم ... انهم وضعوه بحجم كبير جدا وبوضوح تام ، يوم السبت فى الاسبوع الماضى ... كان اشبه باعلانات السينما الكبيرة .

جذبت الارملة مقعدا الى جانب المكتب وهتفت قائلة :

ـ هذا شيء فاضح مخجل ... ليس هناك شيء يمكن أن يقال عن اسرة مثالية مثل اسرتك ...

لم يبد انزعاج على مستر كارميكل ، وتولى البيان قائلا :

ـ لما كانت زوجتى بيضاء ، فقد كان الاولاد من كافة الالوان ... تصورى .. احد عشر ...

فقالت الارملة :

ـ بالطبع ...

ـ لا بأس ... قال الملصق اننى اب الابناء الملونين فقط ... وعدد الملصق آباء الابناء الآخرين ... بل انهم زجوا باسم دون جوزيه مونتيل ، عليه رحمة الله ...

ـ زوجى ؟ !..

فقال كارميكل :

ـ زوجك ، وازواج اربع سيدات اخريات ...

انشأت الارملة تنتحب ، وراحت تقول :

ـ من حسن الحظ أن بناتى بعيدات فى الخارج ... انهن يقلن أنهن لايردن بأى حال العودة الى هذه البلاد المتوحشة التى يقتل فيها الطلبة فى الشوارع ، وأنا أقول لهن انهن على حق ، وانه ينبغى لهن الاقامة فى باريس بصفة دائمة ...

لم يتمالك مستر كارميكل أن استدار بمقعده نصف دورة وقد أدرك أن الحديث اليومى المحرج قد بدأت حلقته من جديد ، وقال لها :

ـ لا موجب عندك للقلق ...
فقالت منتحبة :
ـ بل بالعكس تماما ... أنا أول انسانة كان يجب ان أحزم امتعتى وارحل عن هذه البلدة ، حتى لو ادى الامر الى فقدان هـذه الارض والاعمال التى كان ارتباطنا بها سببا لمصائبنا ... لا يامستر كارميكل ... لست اريد طشتا من ذهب لكى أبصق فيه الدم ...
حاول مستر كارميكل أن يواسيها ، فقال لها :
ـ لابد لك من مواجهة مسئولياتك ... لا يمكنك القاء ثروة من النافذة ...
فقالت الارملة :
ـ ان المال هو روث الشيطان ...
ـ لكنه فى هذه الحالة هو ايضا ثمرة كفاح دون شيب جوزيه مونتيل وعمله الشاق ...
عضت الارملة أصابعها ، وردت قائلة :
ـ انت تعرف أن هذا غير صحيح ... انها مال حرام ، وان اول من كفر عنها بموته دون اعتراف كان جوزيه مونتيل ذاته ..
لم تكن هذه هى المرة الاولى التى قالت فيها هذا الكلام ... ولم تلبث أن هتفت وهى تشير الى العمدة الذى كان يمشى على الرصيف المواجه متأبطا ذراع رئيس السيرك :
ـ وان الذنب فى هذا يقع طبعا على رأس هذا المجرم ... لـكننى انا الانسانة التى تحتمل الوزر والتكفير عنه ...
تركها مستر كارميكل ... وعمد الى رزم البنكنوت المشـدودة بأحزمة من مطاط فوضعها فى علبة من الكرتون ... ومن البـاب المؤدى الى الحوش جعل ينادى الفلاحين اسما اسما حسب الحروف الابجدية ...
وفيما كان الرجال يتسلمون اجرهم الاسبوعى كانت الارملة مونتيل تسمعهم وهم يمرون دون أن ترد على تحياتهم ... لقد اصـبحت تعيش وحيدة فى البيت الكبير الكئيب المؤلف من تسع حجرات ، والذى شهد موت « الام الكبرى » ، والذى اشتراه جوزيه مونتيل دون أن يتصور أن أرملته سيكتب عليها أن تعانى فيه الوحدة الى يوم مماتها ... وفى الليل عندما كانت تطوف بأرجاء الغرف الخالية لرش المبيد الحشرى ، كانت تقف امام صورة « الام الكبرى » متسائلة : « متى

يحين موتى ؟ » ... لكن هذه المناجاة التى كانت تسعدها مع الراحلين لم تكن الا لتزيدها بلبلة واضطرابا ...

وعندما جاوزت الساعة الحادية عشرة شاهدت الارملة مونتيل من خلال دموعها الاب انجيلو وهو يجتاز الميدان ... فنادته مرتين ، شاعرة بأنها تقدم على الخطوة الاخيرة بهذا النداء .. بيد ان الاب انجيلو لم يسمعها ... فقد طرق باب الارملة آسيز ، على الرصيف المواجه ، وفتح له الباب مواربا بطريقة متسترة لتمكينه من الدخول.

***

فى مدخل البيت الذى كان يموج بتغريد الطيور ، كانت الارملة آسيز مستلقية فوق مقعد قماش مستطيل ، ووجهها مغطى بمنديل غارق فى سائل مرطب ... وقد عرفت من أسلوب طرق الباب ان القادم هو الاب انجيلو ، بيد انها أطالت فترة الارتياح التى لابستها فى تلك اللحظة الى أن سمعته يحييها ... ومالبثت ان كشفت عن وجهها ، الذى انهكه طول الارق ...

قالت له :

ـ ارجو عفوك يا ابى ... لم أكن اتوقع حضورك مبكرا ...

تجاهل الاب انجيلو حقيقة أنها هى التى دعته لتناول الفداء ، واعتذر فى شيء من الارتباك بأنه أصيب بصداع هذا الصباح وانه فضل أن يعبر الميدان قبل أن يشتد الحر ...

فقالت الارملة :

ـ ليس لهذا اهمية ... كان قصدى اننى لم ارد لك أن تلقانى وأنا فى حالة مضنية ...

اخرج القس من جيبه كتاب صلوات بدأ يتفقد جلدته ، قائلا :

ـ ان أردت ، يمكنك أن تستريحى فترة أخرى اقرأ فى خلالها ..

فاعترضت الارملة قائلة :

ـ اننى اشعر الآن بتحسن ...

وسارت الى نهاية المدخل وهى مغمضة العينين ... وفى عودتها بسطت المنديل بعناية بالغة على ذراع المقعد ... وعندما جلست فى مواجهة الاب انجيلو ، بدت وكأنها صغرت اعواما ...

قالت له دون اى تمهيد درامى :

ـ ابتاه .. انا فى حاجة الى مساعدتك ...

فوضع الاب انجيلو كتاب الصلاة فى جيبه ، قائلا :

ـ تحت أمرك ...
ـ المسألة خاصة بابنى روبرتو آسيز مرة أخرى ...

ان روبرتو آسيز الذى وعد فى تلك المناسبة السالفة ان ينسى حكاية الملصق الفاحش ، ثم ارتحل ، ما لبث أن عاد فجأة فى نفس الليلة ... ومنذ تلك اللحظة وحتى الفجر ـ عندما أضناه التعب ـ ظل جالسا فى ظلام الغرفة ، فى انتظار عشيق زوجته المزعوم ...

لقد أنصت الاب انجيلو الى الارملة متحيرا ثم قال :

ـ ليس هناك أى أساس لهذا ...

فردت الارملة قائلة :

ـ انت لا تعرف آل آسيز يا أبى ... انهم يحملون الجحيم فى تخيلاتهم ...

فقال لها :

ـ ان زوجته ربيكا تعرف وجهة نظرى فى مسألة الملصقات الفاحشة ... لكن اذا أردت ، بامكانى أن أكلم روبرتو آسيز ايضا ...

فقالت الارملة :

ـ كلا مطلقا ... ان هذا يزيد النار ضراما ... لكن من الناحية الاخرى ، اذا امكنك أن تتكلم عن مسألة الملصقات الفاحشة فى موعظة الاحد . فأنا واثقة ان روبرتو آسيز سيشعر بأن الواجب يقتضيه أن يفكر مليا ...

فتح الاب انجيلو ذراعيه ، وهتف قائلا :

ـ مستحيل ... ان هذا يعطى المسألة اهمية ليست لها ...
ـ ليس هناك شىء اهم من تفادى وقوع جريمة ...
ـ هل تظنين ان المسألة قد تستفحل الى حد الحد ؟ ...

فقالت الارملة :

ـ لا اظن هذا فقط ، بل انا واثقة انه ليست عندى الوسائل التى تمنع وقوعها ...

وبعد لحظة كانا جالسين الى المائدة ... وجاءت خادمة حافية القدمين تحمل الطعام ... فأخذ الاب انجيلو يأكل فى صمت ... وفى النهاية قال للأرملة :

ـ لا بأس ... عليك اذن ان تتأكدى من أن روبرتو آسيز لن يفوته حضور القداس يوم الاحد ...

فوعدته الارملة آسيز بما طلب ...

***

امضي الدكتور جيرالدو وزوجته ـ التى لم تكن تنام وقت القيلولة ـ فترة بعد الظهر فى قراءة رواية للكاتب الانجليزى تشارلز ديكنز ... وكانا يجلسان فى الشرفة الداخلية ، هو فى الارجوحة يستمع وقد شبك أصابعه خلف عنقه ، وهى ممسكة بالكتاب فى حجرها .. ولم ترفع رأسها حتى النهاية ، وحتى عندما فرغت ظلت والكتاب مفتوح فوق ركبتيها ، بينما راح زوجها يغتسل فوق الحوض ... وكان الحر ينذر بعاصفة ...

ثم ارتدى بدلة من الكتان الابيض بمساعدة زوجته ... وكان يمكن أن يظن من يراها أنها أخته الكبرى ، ليس فقط بسبب تفانيها فى اداء مطالبه ، بل كذلك لما يتجلى فى عينيها من هدوء فاتر يجعلها تبدو أكبر سنا ...

وقبل أن يبارح الدكتور جيرالدو البيت أطلعها على كشف زياراته الخارجية مرتبا حسب الدورة ، حتى تكون على علم عند وجود حالة طارئة ، واتجه الى غرفة الانتظار حيث ادار قرص المواعيد ليعلن : سيعود الطبيب فى الساعة الخامسة ...

وكان الشارع يعج بالحر ... وسار الدكتور جيرالدو على امتداد الرصيف الظليل وفى نفسه احساس بنذير يقول : على الرغم من شدة الهواء ، فلن يسقط المطر هذا المساء ... وكان طنين ذباب الحصاد يضاعف من أثقال الوحدة فى الميناء النهرى ، ولكن البقرة الميتة ابعدت من مكانها وسحبها التيار بعيدا ، تاركة وراءها آثار العفن ...

كان الدكتور جيرالدو قد حجز ساعة بعد ظهر هذا اليوم لدون ساباس ... وقد وجده فى الفراش منهوكا ، ملتفا بمنشفة من وسطه الى أعلى ...

وقال دون ساباس شاكيا وهو يدير جسده الضخم الى ناحية الباب :

ـ ياله من حر شنيع يادكتور ... اننى اخذت الحقنة بعد الغداء ...

فتح الدكتور جيرالدو حقيبته فوق خوان قرب النافذة .. وكان ذباب الحصاد يطن فى الحوش ، وحرارة البيت أشبه بحرارة

صوبة نباتية ... ولما أخـــذ الدكتور جيرالدو « عينة » من بول دون ساباس فى أنبوبة اختار شعر المريض براحة ، وقال وهو يراقب عملية التحليل :

ــ احذر يا دكتور .. انا لا أريد أن أموت قبل أن أعرف كيف تنتهى هذه الرواية ...

ــ اية رواية ؟

ــ « القصاصات الفاحشة » ...

وراح دون ساباس يراقبه حتى فرغ من تسخين الانبوبة على لهب مصباح الكحول ، ثم قال وهو يلقى بالعينة فى الحوش :

ــ النتيجة طيبة ...

وتفرس فيه مليا ، ثم قال :

ــ هل انت مشغول ايضا بحكاية الملصقات هذه ؟..

فأجاب المريض :

ــ لست أنا ... ولكننى مثل اليابانى الذى يستمتع بفزع غيره من الناس ...

انتقل الدكتور جيرالدو الى تجهيز الحقنة ، بينما مضى دون ساباس يقول :

ــ وبالاضافة الى هذا فانهم وضعوا لى ملصقا منذ يومين .. وهو نفس الكلام الفارغ عن حكاية أولادى وحكاية الحمير ...

شد الدكتور جيرالدو على وريد دون ساباس بأنبوب مطاط ... واخذ المريض على رواية حكاية الحمير باعتبار ان الطبيب لم يسمعها فراح يقول :

ــ هى صفقة حمير عقدتها منذ عشرين سنة ... وحدث ان الحمير التى بعتها وجدت ميتة فى الصباح بعد يومين ، دون أن توجد عليها اية آثار للعنف ...

وقدم ذراعه المكتنز اللحم لكى يأخذ الطبيب « عينة » الدم ... وعندما فرغ وغطى الثقب بالقطن ثنى دون ساباس ذراعه قائلا :

ــ وهل تعرف ماالذى اختلقه الاهالى ؟...

هز الطبيب راسه ، فقال دون ساباس .

ــ اشاعوا فى كل مكان اننى ذهبت الى حوش الحمير ليلا واطلقت النار عليها من داخل ادبارها ...

وضع الدكتور جيرالدو الانبوبة الزجاجية التى بها عينة الدم فى جيبه ، وقال :

ـ هذه الحكاية تدل مظاهرها على انها حقيقة ...

فقال دون ساباس وقد جلس فى الفراش مثل صنم :

ـ الثعابين كانت السبب ... وعلى أى حال فان من البلاهة كتابة قصاصة فاحشة عن شىء يعرفه كل انسان ...

فقال الطبيب :

ـ كان ذلك دائما هو الصفة الملازمة للملصقات الفاحشة ... انها تقول مايعرفه كل الناس ، وهو مايكاد ينطبق على الحقيقة ..

انتابت دون ساباس لحظة شرود ... ومالبث أن غمغم وهو يجفف العرق عن عينيه الزائغتين :

ـ ان الواقع هو أنه لاتوجد ثروة واحدة فى هذه البلاد ليس وراءها حمير ميتة ...

فى هذه اللحظة كان الطبيب يغسل يديه فوق الحوض .. فمالبث أن تطلع الى المريض من خلال المرآة وقال له :

ـ ان اعتقادى الدائم يادون ساباس هو أن الصفاقة هى فضيلتك الوحيدة ...

اثار هذا الوصف حماس المريض ... والواقع ان غمزات الطبيب اذكت فيه فورة شباب مفاجئة ، حتى قال :

ـ هذه الصفة ، وشىء آخر هو : شدة حيويتى ... ولهذا فاننى سأموت مستهزئا بحكاية الملصقات الفاحشة ... انها تقول أن أولادى يستجيبون لاغراءات كل صبية تتفتح براعمها فى هذه الغابات ... وانا اقول انهم ابناء أبيهم ، ومن شابه اباه فما ظلم ! ...

وقبل أن يستأذن الطبيب فى الانصراف ، كان عليه ان يستمع الى المريض وهو يهتف بقوله :

ـ الشباب السعيد ، له الاوقات السعيدة ، مادامت الصبية فى سن المراهقة لاتكلف اكثر من ثمن عجلة ...

فقال له الطبيب :

ـ ان هذه الذكريات المستهترة ترفع نسبة السكر فى دمك ...

ففتح دون ساباس فمه ليرد قائلا :

ـ بالعكس ... انها افضل من حقن الانسولين اللعينة التى تعطيها لى ...

عندما خرج الطبيب الى الشارع كان شىء آخر يضايقه غير لغو مريضة الشائن : وهو الملصقات القاذعة ... فقد ظلت الشائعات تتواتر عنها مدى أيام فى مكتبه ... وبعد زيارته لدون ساباس عصر هذا اليوم ، تحقق عنده أنه لم يسمع أحاديث عن غيرها مدى أسبوع ...

فقد قام بزيارات أخرى خلال الساعة التالية ، وفى كل زيارة لم يكن يسمع غير حديث الملصقات الفاحشة ... وكان يستمع الى الروايات دون أن يعقب ، مكتفيا بابتسامة يسيرة ظاهرها عدم الاكتراث ، وان كان فى الحقيقة يحاول أن يصل الى نتيجة ... وكان فى طريق العودة الى مكتبه عندما التقى بالاب انجيلو خارجا من دار الارملة مونتيل ، فخلصه من تأملاته ...

قال له الاب آنجيلو :

ـ كيف حال مرضاك يادكتور ؟..

فأجاب الطبيب :

ـ ان مرضاى على مايرام .. وماذا عن مرضاك أنت ؟..

عض الاب انجيلو على شفتيه ... وما لبث ان أمسك بذراع الطبيب وأخذا يعبران الميدان ، فقال القس :

ـ ولماذا تسأل ؟...

فأجاب الطبيب :

ـ لا أدرى ... سمعت أن وباء خطيرا قد تفشى بين روادك ...

تحاشى الاب انجيلو الرد المباشر ، مما استشف منه الطبيب انه فعل هذا عن عمد ، وذلك عندما قال :

ـ اننى عائد توا من عند الارملة مونتيل ... ان اعصاب هذه المراة المنكودة قد أضنتها ...

فقال الطبيب مشخصا :

ـ ربما كانت العلة فى ضميرها ...

ـ بل هو الاستحواذ المسيطر عليها : الموت ...

وعلى الرغم من أنهما يقيمان فى مكانين متعارضين ، فان الاب انجيلو صحبه الى مكتبه ... فعاد الطبيب الى التقاط الخيط ، قائلا :

ـ أقول الجد ايهـا الاب : مارأيك فى حـكاية الملصـقات الفاحشة ؟ ...

فأجاب القس :

ـ أنا لا أفكر فيها .. لكن اذا حملتنى على ذلك ، قلت لك انهـا من عمل الحسد فى بلدة مثالية ناجحة ...

فرد الدكتور جيرالدو قائلا :

ـ اننا معشر الاطباء لا نشخص على هذا النحو ، حتى وان كان فى العصور الوسطى ...

وتوقفا أمام المكتب ... وبعد أن روح الاب انجيلو بالمروحة وانيا أكد رأيه الذى أسلفه فى هذا اليوم ، من ان الانسان يجب ألا يعطى الاشياء الاهمية التى ليست لها .. أما الدكتور جيرالدو فقد شعر فى دخيلته بيأس مستتر ، حتى قال :

ـ كيف تعرف يا أبى أنه ليس هناك شىء حقيقى فيما تقـوله « الملصقات الفاحشة » ؟..

ـ لو كان هذا لعرفته من سياق الاعترافات ...

فتطلع اليه الطبيب ببرود قائلا :

ـ والامر أخطر اذا كنت لا تعرف من خلال الاعترافات ...

وكان القس قد لاحظ عصر هـذا اليوم أن النـاس فى البيوت الفقيرة كانوا يتحدثون أيضا عن « الملصقات الفاحشة » ، لـكن بطريقة مختلفة ، بل وحتى بمرح نظيف ... وقد تناول طعامه بعد حضور صلوات المساء وهو يشعر بشوكة ألم فى راسه ، وان كـان عزا هذا الى طعام الفداء الدسم الذى تناوله عند الارملة مونتيل ... وبعد ذلك تصفح جدول التوصيف الخلقى للافلام التى تعرضها دار السينما ، ولاول مرة فى حياته شعر بلون خفى من الفخر وهو يدق دقات منتصف الليلة المؤذنة بحظر عرض هذا الفيلم السينمائى ... وفى النهاية وضع كرسيا صغيرا قرب باب الشارع وهو يشعر بأن راسه يكاد ينفجر الما ، وتأهب لـكى يتحقق علانية من الذين يرتادون دار السينما مخالفين نواهيه ومواعظه ...

***

دخل العمدة الى دار السينما ...

جلس فى ركن أمامى ودخن سيجارتين قبل أن يبدأ العرض .. وكانت لثته قد أصبحت طبيعية تماما ، بيد ان جسده ما زال يعانى

من ذكرى الليالى الماضية ومن الافراط فى تعاطى المسكنات والتدخين ...

كانت دار السينما فناء يحوطه سور من الاسمنت ، تغطيه الواح من الزنك الى منتصفه ... ولم يشعر العمدة بالراحة الا حين اطفئت الانوار ... وعندما سكتت الموسيقى الزاعقة من خلال الميكروفون اعقبها صوت تموج المولد الكهربائى القائم فى كشك خشبى مجاور لجهاز العرض ...

وقبل بدء الفيلم عرضت بعض اللوحات الاعلانية .. واختلطت فى الظلام همسات وافدة متوالية ، وخطوات مرتبكة ، وضحكات مكتومة ... وخيل للعمدة أول الامر ان حركات الدخول هذه المقترنة بالتكتم هى وليدة التحايل على الخطر الذى فرضه الاب انجيلو على الافلام الممنوعة ...

ومهما يكن فقد تنبه الى مرور مدير السينما عن كثب ، ربما بسبب رائحة الكولونيا المنبعثة منه ... وسرعان ما همس العمدة قائلا وهو يجذبه من ذراعه :

ـ يا لص ! .. لابد أن تدفع ضريبة خاصة ..

ضحك المدير ضحكة خافتة ، وجلس فى المقعد المجاور قائلا :

ـ هذا فيلم جيد ...

فقال العمدة :

ـ بودى أن تكون الافلام كلها خارجة ... فليس ادعى الى الملل من الافلام الوعظية ..

فى الاعوام الماضية ، لم يكن رواد السينما يأخذون مأخذ الجد هذا الخطر الذى كان الاب انجيلو يفرضه بقرع الاجراس ... ولكنه كان يعمد فى قداس كل احد الى التنديد بهذه المخالفة وطرد النساء المخالفات من حرم الكنيسة .

وفى هذا قال مدير السينما للعمدة :

ـ ان الباب الخلفى للسينما كان هو منقذى ...

وبدأ العمدة يتابع نشرة الاخبار القديمة ... وفى خلال ذلك راح يتكلم ، فقال معقبا على كلام المدير :

هذا هو الشأن فى كل شىء ... ان القس يأبى اعطاء العشاء الربانى للنساء ذوات الاكمام القصيرة ، فيمضين فى ارتداء الاكمام

القصيرة ، لكنهن يضعن أكماما طويلة زائفة قبل الذهـــاب الى القداس ...

وبعد نشرة الاخبار عرض برنامج الاسبوع التالى ، فجعل الاثنان يتابعان العرض فى صمت ... وفى النهاية مال مدير السينما نحو العمدة ، وهمس قائلا :

ـ ياحضرة الملازم ... اشتر هذه البلية منى ...

لم يرفع العمدة نظره عن الشاشة ، وقال :

ـ انها ليست عملية ناجحة ...

فقال مدير السينما :

ـ بالنسبة لى لا ... لكنها من الناحية الاخرى ، يمكن أن تـكون منجم ذهب بالنسبة لك ... من الواضح ان القس لن يواجهك بحكاية اجراس الخطر ...

فكر العمدة فترة قبل أن يرد :

ـ هى فكرة طيبة فعلا ..

بيد أنه لم يقل شيئا قاطعا ... فقد مد قدميه على الدكة التى امامه واستغرق فى مشاهدة دراما معقدة بدا له ، حسب تقـديره ، انها لا تساوى حتى اربعة اجراس من أجراس الخطر ...

وعندما انصرف من دار السينما عرج على البار حيث كانوا يلعبون الورق ... كان الحو حارا والراديو يقذف موسيقى صاخبة .. وبعد أن شرب زجاجة صودا توجه للنوم ...

سار على امتداد ضفة النهر خلى البال ، متصورا فيضان النهـر فى الظلام ... وما أن بلغ باب غرفة النوم حتى توقف فجـــأة ... وسرعان ماوثب الى الخلف وهو يجذب المسدس من جرابه ..

وقال بصوت مشدود :

ـ اظهر نفسك لكى أراك ، والا نسفت رأسك نسفا !..

فانبعث من خلال الظلام صوت حلو جدا يقول :

ـ لا تكن عصبيا هكذا ياحضرة الملازم ..

فوقف مصوبا مسدسه الى أن خرج الشخص المختفى فى الظـلام الى النور ...

كان كاساندرا ... لاعبة السيرك ...

فقال العمدة :

ـ لقد نجوت من الموت بفارق شعرة ...

وأدخلها غرفة نومه ... فجعلت كاساندرا تتكلم فترة طويلة ، بأسلوب لولبى ... ثم جلست فوق الارجوحة ، وفى اثناء كلامها خلعت حذاءها وركزت نظراتها على ابهامى قدميها المصبوغين بطلاء وردى زاه ...

أما هو فقد جلس فى مواجهتها مروحا بكابه ، منصتا اليها باهتمام ظاهرى ... ثم استأنف التدخين .. وعندما دقت الثانية عشرة ، استلقت بوجهها فى الارجوحة ، ومدت ذراعها المزدان بأساور ذات رنين قوى وقرصت أنفه ... قائلة :

ـ الوقت تأخر يابنى ... اطفىء النور ...

ابتسم العمدة ، وقال :

ـ ايس من أجل هذا سألت عنك ...

لم تفهم .. فقال العمدة :

ـ هل تعرفين قراءة الطالع ؟..

عادت كاساندرا الى الجلوس فى الارجوحة ، قائلة :

ـ طبعا ...

وعندما فهمت ، لبست حذاءها ... ثم قالت :

ـ لكننى لم احضر أوراق كشف الطالع ...

فابتسم العمدة ، وأخرج من قاع حقيبة ملابسه مجموعة اوراق لعب بالية ... فراحت تفحص كل ورقة أماما وخلفا بعناية جادة ، وقالت :

ـ الاوراق التى عندى أحسن ... لكن على أى حال ، المهم هو الرسالة التى تخرج من الاوراق ...

وجذب العمدة منضدة صغيرة وجلس فى مواجهتها ، بينما بسطت كاساندرا اوراق على المنضدة ... ثم سألته :

ـ هل تريد الحب ، أم العمل ؟..

فجفف العمدة العرق عن يديه قائلا :

ـ العمل ...

الفصل السادس

احتمى حمار شارد من المطر تحت افريز سقف بيت الابرشية ، وظل ملازما هذا الملاذ طول الليل ، رافسا بحوافره حائط غرفة النوم ...

وبعد أن أفلح الاب انجيلو فى النوم عند الفجر ، استيقظ اخيرا وهو مكدود مضنى ...

ثم ارتدى ملابسه لترتيل القداس ، وسمع ترينيداد وهى تجمع حصيلة فئرانها الميتة ، بينما كانت بعض النساء يتسللن الى الكنيسة لحضور القداس ...

كان القس منحرف المزاج هذا اليوم ، وعندما توجه لتناول افطاره اعترضت ترينيداد طريقه وهى متهللة الاسارير قائلة وهى تهز الفئران داخل العلبة :

ـ ستة فئران أخرى اليوم !..

فقال الاب انجيلو محاولا التغلب على مشاعره :

رائع ! ... بهذا المعدل سيمكننا ان نكتشف جحورها ونستأصلها تماما ...

فقالت ترينيداد انها تمكنت من استكشاف هذه الجحور ... وشرحت له كيف حددت مواضع الجحور فى مختلف انحاء الكنيسة وكيف سدت منافذها بالاسفلت ... وفى هذا الصباح وجدت فأرا يائسا يضرب الحائط باستماتة بعد أن ظل طول الليل يفتش عن باب مأواه ...

وذهبت ترينيداد لالقاء الفئران الميتة فى المرحاض متمهلة مبسوطة بينما دلف الاب انجيلو الى مكتبه للافطار ، فرفع مفرش المائدة الصغير الذى كان يجد تحته كل صباح ، وكأنما بسحر ساحر ، طعام الافطار الذى اعتادت الارملة آسيز ارساله ...

وعندما عادت ترينيداد قالت له :

ـ نسيت أن أقول اننى لم اتمكن من شراء الزرنيخ .. ان دون لالو موسكيت قال انه لا يمكن بيع الزرنيخ الا بموجب تذكرة طبيب ..

فقال الاب انجيلو :

ـ لا لزوم لهذا ... ان الفئران سوف تختنق حتى الموت داخل جحورها المسدودة ...

وشرع يتناول الطعام والقهوة بينما كانت ترينيداد تفتح النافذة ، اذ قالت :

ـ من الافضل دائما ان نكون على استعداد لئلا تعود الفئران ..

فجأة توقف الاب انجيلو عن صب القهوة ، وتطلع الى ترينيداد قائلا :

ـ اراك تشغلين نفسك كثيرا بهذه المسألة !...

لم يلاحظ الاب انجيلو وقتئذ أو قبل ذلك اية دلالة على القلق فى حاجبى ترينيداد المتضامنين المقطبين .. بيد أنه لم يستطع الآن أن يتغلب على الرعشة اليسيرة آلتى عرت أصابعه وهو يقلب السكر فى قدح القهوة ... واخيرا قال لها :

ـ منذ متى لم تتقدمى بالاعتراف ؟..

فأجابت ترينيداد :

ـ منذ يوم الجمعة الماضى ...

أغمض الاب انجيلو عينيه ... وفجأة توقف عن تقليب القهوة ، ووضع الملعقة الصغيرة ، وقبض على ذراع ترينيداد قائلا :

ـ اركعى ...

فى قلق وضعت ترينيداد العلبة على الارض وركعت أمامه ، فقال لها وقد عالج ان يكسب نبراته حنوه المألوف عند تلقى الاعتراف :

ـ صلى واستغفرى ...

أطبقت ترينيداد قبضتها على صدرها وانشأت تبتهل بغمغمة غير مفهومة ، الى أن وضع القس يده على كتفها قائلا :

ـ لا بأس ...

فقالت ترينيداد : انى كذبت كثيرا ...

ـ وماذا غير ذلك ؟..

ـ وخالطتنى افكار سيئة ...

كان ذلك هو اسلوب اعترافها ... كانت دائما تعدد نفس الذنوب بطريقة معممة وبنفس الترتيب ... أما هذه المرة فلم يستطع الاب انجيلو أن يقاوم رغبته فى النفوذ الى أعماق ابعد ، فقال له :

ـ اذكرى أمثلة ...

فقالت ترينيداد مترددة :

ـ لا اعرف ... احيانا تراود الناس أفكار سيئة ...
فنهض الاب ايجيلو قائلا :
ـ هل فكرت مرة فى التخلص من حياتك ؟..
ـ ياالهى ...
هتفت ترينيداد هكذا دون أن ترفع راسها وهى تضرب رجل المنضدة بعقد أصابعها ... ومالبثت أن اجابت :
ـ لا يا أبتاه !..
جعلها الاب انجيلو ترفع رأسها ، فلاحظ وقد انتابه لون من الكآبة ان عينى الفتاة أخذتا تمتلىء بالدمع ... فقال لها :
ـ هل تقصدين أن الزرنيخ كانا مطلوبا حقيقة للفئران ؟..
ـ نعم يا أبتاه ...
ـ اذن ، ماالذى يبكيك ؟..
حاولت ترينيداد أن تطرق برأسها ، بيد انه امسك بذقنها بثبات ... واذا دموعها تتفجر ، حتى لقد شعر بها الاب انجيلو تجرى بين أصابعه مثل خل حار ... فقال لها :
ـ حاولى أن تهدئى نفسك ... انك لم تكملى بعد اعترافك ...
وتركها تجهش ببكاء صامت . وعندما شعر أنها قد توقفت عن البكاء ، قال لها برقة ؟
ـ لا بأس .. والآن قولى لى ..
تمخطت ترينيداد فى طرف جلبابها ، وابتلعت لعابها الكثيف الذى خالطته الدموع المالحة ... وعندما تمالكت راحت تقول بصوت ثابت :
ـ ان عمى امبروزيو يطاردنى ...
ـ كيف ذلك ؟..
فقالت ترينيداد :
ـ انه يريدنى أن ادعه يمضى ليلة فى فراشى ...
ـ استمرى ...
فقالت ترينيداد :
ـ هذا كل شىء ... قسما بالله هذا كل شىء ...
فنهاها القس قائلا :
ـ لا تحلفى ...
ثم سألها بصوته الهادىء الذى كان ديدنه وهو يتلقى الاعترافات :

ـ اخبريني بشيء واحد ... مع من تنامين ؟...
فأجابت ترينيداد :
ـ مع أمي والباقين .. سبعة في نفس الغرفة ..
ـ وأين ينام هو ؟..
فأجابت ترينيداد :
ـ في الغرفة الاخرى ، مع الرجال ...
ـ وهل سبق له أن ذهب الى غرفتك ؟..
نفت ترينيداد بهزة من راسها ... فقال الاب انجيلو باصرار :
ـ قولي لي الحقيقة ... تكلمي .. لاتخافي .. ألم يحاول مرة أن يصل الى فراشك ؟.
ـ مرة ...
ـ كيف حدث هذا ؟ ..
فأجابت ترينيداد :
ـ لا اعرف ... عندما استيقظت شعرت به في الداخل تحت الناموسية ، ساكنا وهادئا ، وقال لي أنه لايريد أن يفعل اي شيء ، وانه فقط يريد أن ينام معي ، لانه يخاف من الديوك ..
ـ اية ديوك ؟...
فأجابت ترينيداد :
ـ لا اعرف ... هذا ماقاله لي ..
ـ وماذا قلت له ؟..
ـ ... انه اذا لم يذهب فسأصرخ واوقظ الجميع ..
ـ وماذا فعل ؟..
ـ استيقظت كاستولا وسألتني ماذا جرى ، فقلت لا شيء ، وانني لابد كنت أحلم ... وعند ذلك بقي ساكنا جدا ، مثل رجل ميت ، وبعدها لم اكد الاحظه عندما خرج من تحت الناموسية ...
فقال القس بلهجة ايجابية :
ـ وكان بملابسه ...
فأجابت ترينيداد :
ـ كان كحالته عندما ينام .. بالبنطلون فقط ...
ـ ألم يحاول ان يلمسك ؟
ـ لا يا أبي ..
ـ قولي لي الحقيقة ..

فأجابت ترينيداد باصرار :
ـ هى الحقيقة يا أبى ... اقسم لك ..
رفع الاب انجيلو راسها من اطراقته ونظر فى عينيهـا المبللتين رتوقدهما المحزون ... ثم قال لها :
ـ لماذا أخفيت هذا عنى ؟..
ـ كنت مفزوعة ...
ـ مفزوعة من اى شىء ؟..
ـ لا اعرف يا أبى ..
وضع يده على كتفها ، ووجه اليها نصيحة مستفيضة .. فأومأت برأسها مستجيبة ... وفى النهاية صليا معا بصوت خافت ، دون أن يفارقه الاحساس بأن الكارثة الشاملة آتية لاريب فيها ..

***

دفع العمدة باب بيت القاضى اركاديو ، صائحا يناديه .. فظهرت زوجته عنـــد باب غرفة النو وهى تجفف يديهـــا فى ملابسها ، وقالت :
ـ انه لم يأت الى البيت منذ ليلتين ...
فقال العمدة :
ـ يا للشيطان ! .. امس لم يذهب الى مكتبه ... اننى ابحث عنه فى كل مكان لامر عاجل ، ولم اجد احدا يدلنى على مكانه ... أليست عندك اية فكرة اين يوجد ؟ ..
ـ لابد انه عند المومسات ...
انصرف العمدة دون أن يغلق الباب ... وقصد الى البار ، حيث كانت الموسيقى تهز ارجاء المكان ، واتجه مباشرة الى الغرفة الخلفية مناديا القاضى اركاديو بأعلى صوته ... فرد عليه دون روك صاحب البار من حيث كان يصب الروم من دنان صائحا :
ـ انه ليس هنا ياحضرة الملازم ...
فانتقل العمدة الى خلف الحاجز حيث كان عدد من الرجال يلعبون الورق ، فلم يكن بينهم من شاهد القاضى اركاديو ... فقال العمدة :
ـ لعنة الله على هذا !.. كل واحد فى هذه البلدة يعرف مايفعله اى واحد غيره ، والآن عندما احتـاج الى القاضى ، لا أحـد يعرف أين هو ولا ماذا يفعل ! ..

فقال دون روك :

ـ اسأل الشخص الذى يضع الملصقات الفاحشة !..

فرد العمدة قائلا :

ـ لا « تقرفنى » بموضوع تلك القصاصات !..

ولم يوجد القاضى أركاديو فى مكتبه ايضا .. وكانت الساعة وقتها التاسعة ، ولكن سكرتير المحكمة كان مستغرقا فى النعاس عند المدخل ..

وولى العمدة وجهه شطر ثكنات البوليس ، حيث أمر ثلاثة رجال بارتداء ملابسهم والبحث عن القاضى أركاديو فى صالة الرقص وفى بيوت « البغاء السرى » الثلاثة المعروفة للجميع ... وبعد هذا كله خرج الى الشارع دون وجهة معينة ...

وأخيرا ، فى دكان الحلاق ، عثر على القاضى أركاديو جالسا فى كرسى الحلاقة منفرج الساقين وحول وجهه منشفة حارة ... فصاح العمدة :

ـ اللعنة ايها القاضى !.. اننى ابحث عنك منذ يومين ؟..

رفع الحلاق المنشفة ، فرأى العمدة عينين ساهمتين وذقنا تظللها لحية ثلاثة أيام .. فقال له :

ـ انت تختفى بينما زوجتك فى حالة وضع ...

وثب القاضى أركاديو من الكرسى منتفضا ... فضحك العمدة ضحكة صاخبة ورده الى الكرسى قائلا :

ـ لا تكن ابله ... اننى كنت ابحث عنك لسبب آخر ..

فاسترخى القاضى أركاديو مرة اخرى واغمض عينيه ، بينما قال له العمدة :

ـ أتمم الحلاقة وتعال الى المكتب ... سأنتظر هنا ...

وجلس على درجة وهو يقول :

ـ اين كنت بحق جهنم ؟..

فأجاب القاضى :

ـ فى جولة ...

لم يكن العمدة يكن مودة الحلاق ... وفيما سلف لم تفته رؤية الرقعة المسمرة على الحائط بهذه الكلمات : « ممنوع الكلام فى السياسة » ، ولكنه لم يلق بالا اليها .. أما فى هذه المناسبة فقد نادى الحلاق قائلا :

ـ جوارد يولا ...

فمسح الحلاق الموسى فى بنطلونه ووقف ينتظر ، قائلا :

ـ ماذا ياحضرة اللازم ؟..

فسأله العمدة مشيرا الى الرقعة المعلقة :

ـ من أعطاك السلطة لوضع هذه اللافتة ؟ ..

فأجاب الحلاق :

ـ تجارب الايام ...

فأخذ العمدة مقعدا صغيرا وقف عليه ونزع اللافتة قائلا :

ـ الجهة الوحيدة التى لها الحق هنا فى حظر أى شىء هى الحكومة ... اننا نعيش فى ظل الديمقراطية ...

عاد الحلاق الى عمله ، بينما استطرد العمدة قائلا :

ـ لا أحد يمكنه منع الناس من التعبير عن افكارهم ...

ومزق الرقعة والقى بها فى سلة النفاية وذهب الى الحوض لغسل يديه ...

أما القاضى أركاديو فقال للحلاق مؤنبا :

ـ هكذا ترى ماذا يحدث لك بسبب غباوتك ...

ونظر العمدة الى الحلاق من خلال المرآة ، فوجده منهمكا فى عمله ... على أنه لم يرفع نظره عنه وهو يجفف يديه ، وقال :

ـ ان الفرق بين ماقبل والآن ، هو أنه فيما قبل ، كان السياسيون يعطون الاوامر ، أما الان فان الحكومة هى التى تأمر ...

فقال القاضى اركاديو وقد اكتسى وجهه كله برغوة الصابون :

ـ هل سمعت ياجوارديولا ؟..

فأجاب الحلاق : بالطبع ...

وعند انصرافهما دفع العمدة القاضى أركاديو فى اتجاه المكتب ... وبدا تحت استمرار الرذاذ الذى لا ينقطع كأن الشوارع مكسوة بصابون آخر ... وقال العمدة :

ـ كان من رأيى دائما أن دكان الحلاق وكر للمتآمرين ...

فقال القاضى أركاديو :

ـ انهم يتكلمون ... لكن المسألة لا تتجاوز هذا الحد ...

فرد العمدة قائلا : وهذا بالضبط مايجعلنى متشككا ... انهم يعملون متخفين تحت هذا الستار الخادع ..

فقال القاضى : على مدار تاريخ البشرية كلها ، لم يوجد قط

حلاف واحد كان متآمرا ... ومن الناحية الاخرى لم يوجد خياط واحد لم يكن من المتآمرين ...

ولم يترك العمدة القاضي اركاديو الا بعد ان اجلسه فى كرسيه المتحرك ... وجاء السكرتير الى المكتب وهو يتثاءب وبيده ورقة مكتوبة بالآلة الكاتبة ... فقال العمدة :

ـ هذا هو الاسلوب ... لنبدأ العمل

ودفع « الكاب » الى الخلف واخذ الورقة المكتوبة قائلا :

ـ ما هذه ؟..

فأجاب السكرتير : انها للقاضي ... هى بيان بأسماء الاشخاص الذين لم تعلق على أبوابهم قصاصات فاحشة ...

نظر العمدة الى القاضي وقد لاحت عليه علائم الحيرة ، وهتف :

ـ انت أيضا مشغول بهذه المشكلة ؟..

فقال القاضي بلهجة الاعتذار :

ـ انها مثل قراءة الروايات البوليسية ...

قرأ العمدة الورقة ، بينما تولى السكرتير الشرح قائلا :

ـ انها معلومات مفيدة .. لابد أن يكون مؤلف الملصقات واحدا من هذه الاسماء ... اليس هذا منطقيا ؟..

انتزع القاضي اركاديو الورقة من العمدة قائلا له :

ـ ان صاحبنا هذا مخرف كبير ..

ثم استطرد موجها كلامه الى السكرتير .

ـ لو أننى كنت أعلق الملصقات الفاحشة ، فان أول باب اعلق عليه ملصقا فيها هو بابى ، لكى اتخلص من الشبهات فى امرى ... الا ترى هذا ياحضرة الملازم ؟..

فاجاب العمدة : هى مشكلة الناس ، وهم أدرى بدخائلها ... وليس من شأننا أن نجهد انفسنا بشأنها ..

فمزق القاضي اركاديو الورقة وطوح بها فى الحوش قائلا :

ـ بالطبع ...

وقبل ان يسمع العمدة هذا الرد كان قد نفى هذا الحادث من ذهنه ... ومالبث أن بسط راحتى يديه فوق المكتب قائلا :

ـ لا بأس ... ان المشكلة التى أريد منك بحثها فى كتبك القانونية هى هذه : لقد حدث بسبب الفيضان ان الناس فى الجزء الواطىء

من البلدة نقلوا بيوتهم الى الارض القائمة خلف المدافن ، وهى ملكى ... فما الذى أفعله فى هذه الحالة ؟..

فابتسم القاضى اركاديو قائلا :

ـ لم نكن مضطرين للمجىء الى المكتب بسبب هذه المسألة ... وانهـــا أبسط من البســاطة ... ان حكومة البلدة تمنح الارض للمستوطنين وندفع التعـويض الملائم للشخص الذى يثبت ملكيته لها ...

فقال العمدة : عندى الوثائق المثبتة للملكية ...

ـ اذن فليس هناك أكثر من اختيار بعض الخبراء لتثمين الارض ... وحكومة البلدة هى التى تدفع ..

ـ ومن يختارهم ؟..

ـ يمكنك أنت اختيارهم ...

سار العمدة الى الباب وهو يعدل حامل المسدس .. وعندما راقبه القاضى وهو يتأهب للخروج ، بدا له أن الحياة ليست سوى سلسلة متعاقبة من الفرص من أجل البقاء والعيش ... وقال باسما :

ـ لا سبب يدعو الى العصبية بســبب مسألة بسيطة مثــل هذه ...

فقال العمدة جادا : أنا لست عصبيا ... ولكن هذا لا يمنع مــن كونها مشكلة ...

فتدخل السكرتير قائلا : طبعا عليك أولا تعيين وكيل لك ...

فالتفت العمدة الى القاضى قائلا : هل هذا صحيح ؟..

فأجاب القاضى : فى حالة الطوارىء هذه ، لاليس هذا محتما ... ولكن موقفك سيكون بالطبع أدعى الى الوضوح اذا تولى وكيل لك مباشرة المسألة ، بعد تزويده بالوثائق التى تثبت انك المالك للأراضى محل النزاع ...

فقال العمدة . اذن علينا تعيين هذا الوكيل ...

***

نقل بنيامين البقال قدمه من فوق صندوق الصبى ماسح الاحذية دون أن يرفع نظره عن طيور الباز المتقاتلة التى كانت تتزاحم على بعض الاحشاء الملقاة فى الشارع ... ولم يلبث الصبى الجالس عند قدميه أن غمس « فردة » الحذاء الاخرى بأوكسيد الزنك ثم نقر على الصندوق مرة ثانية لتغيير الفردة الاخرى .

ان بنيامين الذى كان فى سالف الايام يعيش من كتابة العــرائض لم يكن بحاجة الى استعجال أى شىء .. والواقــع ان عجلة الزمن الوئيدة قد تركت آثارها فى دكانه ، ذلك الدكان الـذى كان يبتلع اولا بأول دخله الضئيل ، الى ان استحال مخزونه فى النهــاية الى سفبحة كيروسين وحزمة من الشمع ...

وعندما عاد بنيامين الى داخل دكانه الكاسف ذى الارفف الخاوية لبس سترته ووضع على راسه قبعة من القش واجتاز الشارع محتميا من المطر بمظلته ، ثم نقر على نافذة بيت مواجــه فى الشارع ... فظهرت لدى النافذة المواربة فتاة فاحمة الشعر شديدة شــحوب البشرة ... فقال :

ـ صباح الخير يامينا ... الم تتفدى بعد ؟..

فردت الفتاة بالنفى وفتحت النافذة عن آخرها .. كانت جالسة أمام سلة كبيرة تصنع أزهارا صناعية وعن كثب منها فونوغــراف يعزف اسطوانة ... فقال لها :

ـ هل تعملين معروفا وتراقبين الدكان الى أن أرجع ؟..

ـ هل تتغيب طويلا ؟..

ـ أنا ذاهب الى طبيب الاسنان ... سأرجع بعد نصف ساعة ..

فقالت مينا : جميل ... ان المراة الضريرة لا تريدنى ان أتسكع النافذة ..

وسار بنيامين متجها الى دار طبيب الاسنان ، الذى ابتدره قائلا وهو يفتح الباب :

ـ يبدو لى من وجهة نظرى ، ان حساسية الحــرباء هى فى عينيها ..

فقال بنيامين : هذا جائز .. لكن ما علاقة ذلك بأى موضوع ؟ .

فقال الطبيب : فقط سمعت فى الراديو أن الحرباء العميــاء لا تغير لونها ...

ومهما يكن فقد وضع بنيامين مظلته فى ركن وعلق سترته وقبعته وجلس فى الكرسى ، بينما كان الطبيب يخلط عجينة وردية اللون فى هاون صغير ... فقال بنيامين :

ـ ما أكثر الذى يقولون ...

ـ عن الحرباءات ؟..

ـ عن كل انسان ...

اقترب طبيب الاسنان من الكرسى بالعجينة المجهزة لاخذ مقاس السن ... فأخرج بنيامين أسنانه الصناعية ولفها فى فى منديل ووضعها فوق الرف الزجاجى بجانب الكرسى ... وبعد ان وضع الطبيب العجينة فى الفراغ المطلوب فى اللثة ، جعله يقفل فمه ... ثم قال له وهو يتفرس فى عينيه :

ـ هذا هو الحال ... أما انا فاننى جبان ...

حاول بنيامين أن يجد كلاما مناسبا يعقب به ، بيد ان الطبيب أبقى فمه مقفلا ، فرد بنيامين من داخل فمه :

ـ لا ... ليس هذا هو الحال ...

كان بنيامين يعرف ، مثل كل انسان آخر ، ان طبيب الاسنان كان الشخص الوحيد المحكوم عليه بالموت الذى لم يهجر بيته ... انهم خرقوا الجدران بالرصاص ، وأمهلوه أربعا وعشرين ساعة لمغادرة البلدة ، لكنهم لم يفلحوا فى تحطيم ارادته ... فقد نقل مكتبه الى غرفة داخلية ، واستمر يعمل والمسدس فى متناول يده دون ان يفقد أعصابه ، الى أن مضت شهور عهد الارهاب الطوال ...

ومهما يكن فقد ظل الطبيب مطبقا فم بنيامين الى أن جفت العجينة فجذب القالب الصغير ... وهنا ازاح بنيامين عن صدره ما كان يثقل عليه ، فقال :

ـ لم أكن أشير الى هذا ... وانما كنت أشير الى حكاية الملصقات الفاحشة ...

فقال الاخصائى : آه .. انت اذن من المشغولين بهذه الحكاية ايضا ؟ ...

فقال بنيامين : انها ظاهرة للانحلال الاجتماعى ...

ورد الاسنان الصناعية الى فمه وبدأ فى ارتداء سترته ... فقال الطبيب بغير اكتراث :

ـ انها ظاهرة تدل على أن كل شىء سيعرف عاجلا أو آجلا ..

ثم نظر الى السماء الغائمة من خلال النافذة واضاف :

ـ اذا أردت فبمكنك الانتظار الى ان يتوقف المطر ...

فعلق بنيامين مظلته على ذراعه قائلا :

ـ الدكان بلا أحد فيه ...

ولوح بقبعته مسلما ، ثم قال وهو لدى الباب :

ـ وعليك أن تنزع هذه الفكرة من راسك يا اوربليو ... لا حق لاحد أن يظن انك جبان لانك خلعت ضرسا للعمدة ...

فقال الطبيب :

ـ فى هذه الحالة ، انتظر لحظة ..

وتقدم الى الباب وأعطى بنيامين ورقة مطوية ، قائلا :

ـ اقرأها ومررها على من حولك ...

لم يكن بنيامين بحاجة الى فتح الورقة لكى يعرف مابها ... وانما نظر الى الطبيب بفم مفتوح قائلا :

ـ من جديد ؟ ..

فأومأ طبيب الاسنان برأسه ايجابا ، وبقى لدى الباب الى أن ابتعد بنيامين ...

وعند الساعة الثانية عشرة نادته زوجته لتناول الغداء ... كانت انجيلا ابنته البالغة من العمر عشرين عاما ترتق الجوارب فى غرفة الطعام ، التى كانت بسيطة الاثاث قديمته .. وبدا فوق الحاجز الخشبى المواجه للحوش صف من اوعية حمراء بها نباتات طبية ... وقال الطبيب حال جلوسه الى المائدة المستديرة :

ـ مسكين بنيامين .. انه مشغول بحكاية الملصقات .

فقالت زوجته : كل انسان مشغول بها ...

وتدخلت انجيلا قائلة : ان نساء « توفار » مهاجرات من البلدة ..

وقالت زوجته وهى تغرف الحساء فى الصحاف :

ـ انهن يبعن كل شىء فى استعجالهن ...

فقال طبيب الاسنان مناقضا لهواجس زوجته :

ـ انهن يبعن كل شىء فى استعجالهن ...

وجعل ينفخ فوق ملعقة الحساء منتظرا تعقيبا من ابنته .. لكنها لم تستجب لتوقعاته ... وانما راحت تتحدث عن السيرك ، فقالت ان فيه رجلا نشر زوجته نصفين ، وقزما غنى وراسه فى فم الاسد ، ولاعب عقلة أدى ثلاث قفزات فى الهواء فوق وسادة من الخناجر ... فانصت الاب اليها وهو يأكل فى صمت ... وفى نهاية الطعام وعد أن يذهبوا جميعا الى السيرك هذه الليلة ، ما لم تمطر ...

وفى غرفة النوم وهو يهيىء ارجوحته للقيلولة ، بدا له أن هذا الوعد لم يكن له تأثير على مزاج زوجته ... فهى ايضا كانت على

استعداد لهجر البلدة اذا هم علقوا ملصقا فاحشا عن اسرتهم ...

والواقع أن طبيب الاسنان انصت اليها دون دهشة ... وقال لها :

ــ سيكون شيئا مضحكا اذا بدا أنهم لم يستطيعوا التخلص منا بالرصاص ، فتخلصوا منا بقصاصة ورق الصقوها على الباب !..

وخلع حذاءه ودلف الى الارجوحة وما يزال بالجورب ، وقال يهدئها :

ــ اكن لا تنزعجى .. ليس هناك أقل خطر من ان يضعوا ملصقا على بابنا ...

فردت قائلة : انهم لايحترمون احدا ...

فقال الطبيب : المسألة فيها نظر ... فى حالتى فانهم يعرفون أن المسألة لها ثمن آخر ...

فتمددت المرأة فوق الفراش وهى فى اعياء بالغ ، قائلة :

ــ هذا اذا كان الذى يضع الملصقات يعرف ماتقول ...

فقال طبيب الاسنان بعزم :

ــ ان الذى يضع الملصقات يعرف تماما ...

***

اعتاد العمدة ان يمضى اياما دون أن يأكل ... كان ببساطة ينسى الاكل ... وكان نشاطه ، الذى يجعله كالمحموم فى مناسبات ، يشبه فى شذوذه فترات الخمول والضيق الطويلة التى كانت تلم به فيطوف هائما على وجهه فى البلدة دون اى هدف ، أو يغلق على نفسه مكتبه المصفح فلا يشعر بمضى الوقت ... كان وحيدا على الدوام ، بلا اهتمامات خاصة ، ولا عادات منتظمة تحكم تصرفاته ... كان مدفوعا فقط بسرعة قاهرة غلابة وتراه يظهر فى الفندق فى اية ساعة ، ويأكل كل مايقدم اليه ...

وفى هذا اليوم تناول الغداء ، مع القاضى أركاديو ... وقد أمضيا فترة بعد الظهر كلها معا الى ان تم بيع قطع الارض بصورة قانونية .. لقد أدى الخبراء واجبهم .. ولم تدم مهمة وكيل المالك التى حددت له بصفة موقوتة اكثر من ساعتين .. وعندما دخلا الى البار بعد الساعة الرابعة بقليل بدا وكأنهما قاما بأشق عمل فى حياتهما ..

وقال العمدة وهو يفرك يديه :
ـ اذن فقد انتهينا من العملية ...

لم يلتفت اليه القاضي أركاديو ، ورآه العمدة يتحسس منصة البار، فأعطاه مسكنا ، وأمر له بكوب ماء ... فقال القاضي أركاديو وهو يسند جبينه على المنصة : بيرة مثلجة ...

فقال العمدة وهو يضع النقود على المنصة :

ـ زجاجة كاملة ... انك تستحقها بعد أن اشتغلت كالرجال ....

كان البار فى حالة ترقب وانتعاش ، فالكل ينتظرون بحماس موكب السيرك ...

وراح العمدة يراقب الموكب وهو فى البار ، تهزه دقات الطبول والصدح المتعالى للآلات النحاسية ... وفى طليعة الموكب مرت فتاة ترتدى بذلة مفضضة امتطت فيلا قزما ، وجاء بعدها المهرجون ولاعبو العقلة ... وكان الطقس قد صحا تماما وبدات أشعة الشمس الاخيرة تدفىء الهواء .. وعندما توقفت الموسيقى حتى يتسنى للرجل الذى يمشى على الارجل الخشبية الطويلة أن يقرأ برنامج السيرك ، بدا وكأن البلدة كلها على رأسها الطير صمتا وانصاتا ...

وراقب الاب انجيلو العرض من مكتبه وهو يتابع أنغام الموسيقى بهز راسه ... وقد لازمه شعور الانبساط هذا حتى مستهل المساء ، عندما الفى نفسه فى غرفة النوم ... لكنه لم ينم قبلما سطر رسالة موجزة يستدعى فيها العمدة ...

وفى أحد مقاعد الضيوف المتازين جلس العمدة فى السيرك بالحاح من مديره ... فشهد « نمرة » الافتتاح التى اداها لاعبو « العقلة » وتلاهم المهرجون ... ثم ظهرت كاساندرا مرتدية ثوبا من المخمل الاسود وهى معصوبة العينين ، تدعو الجمهور الى قراءة أفكارهم ... فهرب العمدة من السيرك هروبا ... وقام بطوافه المعهود فى البلدة، حتى اذا كانت الساعة العاشرة قصد الى ثكنات البوليس حيث كانت رسالة الاب فى انتظاره ، لكى تثير انزعاجه بطابعها الغريب ...

وكان الاب أنجيلو قد بدأ يخلع ملابسه حين سمع طرق العمدة على الباب ، فقال :

ـ ياالهى ! ... لم أكن أنتظرك بهذه السرعة !..

ومهما يكن فقد قدم له الاب انجيلو زجاجة مياه غازية ، ودخل فى صلب الموضوع قائلا :

ـ انني ازعجتك لكي أعبر لك عن قلقي لعدم اهتمامك بمسألة « الملصقات الفاحشة » ...

ـ غريب يا أبي أن اراك تنشغل أنت أيضا بهذه المسألة .

فقال الاب انجيلو في شيء من الارتباك :

ـ ان ما يشغلني ليس مسألة الملصقات في حد ذاتها ... بل هو شعوري بوجود حالة من الظلم والجور في هذا ..

فقال العمدة وهو عاكف على فتح الزجاجة وارتشاف فورتها :

ـ هناك أعمال خفية تدور هنا .. وأصارحك يا ابي انني لا أعرف ماالذي يمكن فعله ...

ـ عليك أن تعرف الدخائل ... وعلى اى حال فليس هذا بالجديد عليك ... والمأمول أن تفعل شيئا قبل يوم الاحد ...

فقال العمدة : نحن الآن في يوم الخميس ...

ـ أنا عارف ... لكن أظن أنه لم يفت الوقت لكي تؤدى واجبك ...

نهض العمدة واخذ يروح ويغدو في الغرفة بحيوية حسده عليها الاب انجيلو ، وقال في النهاية :

ـ بامكانك أن ترى ان المسألة ليست مسألة اتخاذ اجراءات استثنائية ...

ثم مال نحو القس الجالس في مكتبه وراح يقول في قلق نمت عليه ملامحه ونبراته :

ـ انظر الى هذه النقطة الاساسية يا ابي ... ان البلدة في حالة هدوء ، والناس بدأوا يستردون ثقتهم في السلطات .. وأى اظهار للقوة في هذا الوقت يكون مجازفة كبرى بالنسبة لمسألة لها هذه الاهمية البسيطة ...

أيد الاب انجيلو هذا الكلام براسه ، وحاول أن يشرح غايته قائلا :

ـ انني اشير ، بشكل عام ، الى وسائل معينة ، من اجراءات السلطة ...

فاستطرد العمدة يقول دون أن يغير اسلوبه :

ـ على اى فانني اضع كافة الظروف في تقديري ... انت تعرف أن هناك ستة من جنود البوليس محتجزين في الثكنات ، يأخذون مرتباتهم

دون أن يفعلوا شيئا ... ولم أتمكن من ابدالهم بغيرهم ...

فقال الاب أنجيلو :

ـ انا اعرف هذا ... ولست الومك على اى شىء ..

فمضى العمدة يقول بحدة غير عابىء بالمقاطعة :

ـ والواقع انه ليس سرا على اى انسان ان ثلاثة منهم مجرمون اطلق سراحهم من السجن وامروا بالتخفى كجنود البوليس ... وفى الظروف الحاضرة ، لن أجازف باطلاقهم فى الشوارع لكى يصطادوا اشباحا ...

فتح الاب انجيلو ذراعيه واقر العمدة على كلامه قائلا :

ـ طبعا ، طبعا ... هذا خارج عن البحث ... لكن لماذا لا تلجأ مثلا ، الى الاستعانة بالمواطنين الصالحين ؟..

فأكمل العمدة احتساء الزجاجة وقد بدا صدره وظهره غارقين فى العرق ، ثم قال :

ـ ان المواطنين الصالحين ، كما تسميهم ، ميتون من الضحك على مسألة الملصقات ...

ـ ليسوا جميعا ...

ـ وفضلا عن هذا ، فلا خير فى ازعاج الناس بسبب مسألة هى فى المدى الطويل ليست هامة الى هذا الحد ...

واختتم العمدة كلامه منحازا الى المودة واللين :

ـ وبصراحة يا ابى ، فلم يخطر ببالى حتى هذه الليلة أنك وأنا يمكن أن تشغلنا هذه الحكاية ...

مال الاب انجيلو بدوره الى الملاينة ، قائلا :

ـ انا معك فى هذا الى حد ما ... والحقيقة اننى سأقول فى موعظة الاحد كلمات أعددتها بمثل هذا : « انها من النواحى الاخلاقية مسألة ارهاب .. » ..

فقال العمدة وقد ابتسم ابتسامة عريضة :

ـ بديع .. بديع .. وانك عندما تضع المسألة امامى بهذه الصورة، فسوف ننظر فيما يمكننا عمله ..

شكره الاب انجيلو .. وقال انه ليس من المبهج على اى حال ان يصعد الى المنبر فى موعظة الاحد للافاضة فى مسألة كهذه ، ويكفى الآن أن العمدة قد فهم قصده ومراميه ...

الفصل السابع

عاد دق الطبل الكبير الى الظهور مثل طيف من الماضي ... لقد دوى عاليا أمام البار في الساعة العاشرة صباحا وشد اسماع البلدة كلها ، الى أن ترددت الضربات التحذيرية الثلاث الاخيرة فبلغ الجزع عند الناس مداه ...

ولم تتمالك الارملة مونتيل ان هتفت عندما شاهدت الابواب والنوافذ تفتح والناس يتدفقون الى الميدان من كل مكان :

ـ الموت !.. الموت قد جاء ! ..

وعندما استردت جأشها بعد الصدمة الاولى فتحت ستائر الشرفة ولاحظت الهرج السائد حول جندي البوليس الذي كان يستعد لقراءة الامر العالي ... ثم ساد في الميدان سكون مطبق انتظارا لسماع المنادي ... وعلى الرغم من اهتمام الارملة بالانصات التام من جانبها ، فانها لم تستطع أن تفهم أكثر من كلمتين ...

ولم يقدر أحد ممن في البيت أن يخبرها بما هناك .. وظل هذا الغموض قائما الى أن خرجت الطاهية الى الشارع ثم عادت بالتفاصيل ... فقد أعيد فرض حظر التجول ابتداء من هذه الليلة الى ان تزول الاسباب التي دعت اليه ... بموجب هذا القرار غير مسموح لاحد بالخروج الى الشوارع بعد الساعة الثامنة مساء حتى الخامسة من الصباح دون تصريح موقع عليه ومختوم من العمدة .. وقد صدرت الاوامر الى رجال البوليس ان ينادوا بوقوف اي شخص يجدونه في الشارع ثلاث مرات ، فان لم يطع الامر ، أطلق عليه الرصاص ... وجاء في القرار أن العمدة سيتولى تنظيم دوريات من المدنيين يعينهم بنفسه ، للمعاونة مع البوليس في المراقبة الليلية ...

راحت الارملة مونتيل تقضم أظافرها ، وسألت عن الاسباب التي دعت الى هذا الاجراء ، فأجابت الطاهية :

ـ لم يوضحوا هذا في الامر العالي ... لكن كل انسان يقول انها الملصقات ...

فقالت الارملة المذعورة : ان قلبي حدثني بهذا .. ان الموت يتغذى على هذه البلدة !..

وبعثت تستدعي مستر كارميكل .. واذعانا لقوة طاغية استحوذت على مشاعرها ، امرت بفتح غرفة المخزن واحضار حقيبة الملابس الكبيرة التى اشتراها جوزيه مونتيل لرحلته الوحيدة قبل موته بسنة ... واخرجت من الدولاب بعض الملابس والاحذية ورتبتها بعناية فى قاع الحقيبة ... وبعد ان اتمت هذا شعرت بالراحة التامة التى طالما حلمت بها ، اذ تتصور نفسها بعيدة كل البعد عن هذه البلدة وهذا البيت ، فى غرفة بها موقد وشرفة صغيرة بها اصص الزهور ، وفيها يحق لها وحدها ان تستعيد ذكرى جوزيه مونتيل ، ولا يكون لها من شاغل سوى انتظار كل يوم اثنين لتلقى الرسائل الواردة من بناتها ...

وعندما وصل مستر كارميكل وجدها مرتدية اكثر ملابسها تواضعا ... ومالبثت ان اخرجت من جيبها كل مفاتيح البيت ، وعلى كل مفتاح بطاقة تعريف من الكرتون ، وقدمتها اليه قائلة :

ــ بين يديك أضع الدنيا الآثمة التى عاش فيها جوزيه مونتيل .. ولكَ ان تفعل بها ماتشاء ...

كان مستر كارميكل يخشى هذه اللحظة منذ زمن طويل ، وقد قال بعد جهد بالغ :

ــ تعنين انك تريدين الذهاب الى مكان ما ريثما تنتهى الاحداث الجارية ؟..

فردت الارملة بصوت هادىء ولكن قاطع :

ــ اننى ذاهبة من هنا الى الابد ...

فجعل مستر كارميكل ، دون ابداء اى انزعاج ، يعطيها صورة مجملة للموقف ... ان تركة جوزيه مونتيل لم تتم تسويتها بعد .. وكثير من الممتلكات المقتناة فى القديم وبغير مراعاة للاجراءات الرسمية اصبح لها وضع قانونى غير مؤكد ... والى ان يمكن تنظيم عناصر تلك التركة المشوشة ، والتى كان جوزيه مونتيل نفسه لا يعرف عنها الا بيانات غامضة فى سنواته الاخيرة ــ فانه يستحيل تسوية الميراث ... ولابد للابن الاكبر فى وظيفته القنصلية بالمانيا ، ولابنتيها المفتونتين بالاقامة فى باريس ، من العودة او تفويض احد بتوكيل قانونى لكى يتسنى تقييم حقوقهم فى التركة ... والى ان يتم هذا ، فلن يمكن بيع اى شىء ...

ان هذا التنوير المجمل لذلك التيه الذى ظلت تتخبط فيه مدى

عامين لم يكن له تأثير على الارملة مونتيل هـــذه المرة ، اذ قالت باصرار :

ـ هذا لا يهم ... ان أولادى سعداء فى أوربا ولا يريدون ان يكون لهم أى شأن بهذه البلدة المتوحشة ، على حد قولهم ... واذا أردت يامستر كارميكل ، فلك أن تجعل حزمة واحدة من كل شيء تجده فى هذا البيت وتلقى بها الى الخنازير ...

لم يعارضها مستر كارميكل ... وبادعاء انه لابد على أى حال من اتخاذ اجراءات معينة للرحلة ، توجه الى الطبيب ...

***

ـ الآن سوف نرى يا اجوارد يولا ، ماهى حقيقة وطنيتك ..

عرف الحلاق والرجال الذين كانوا يتجاذبون الحديث فى دكـــانه صوت العمدة قبلما أبصروه لدى الباب ... وقد اضاف قائلا وهـــو يشير الى الاثنين الاصغر سنا :

ـ وأنتم ياحضرات ، ستحصلون هذه الليلة على البنادق التى طالما أردتم الحصول عليها ... وسنرى اذا كنتم من الفســـاد بحيث تستعملونها ضدنا ! ..

ومع ذلك لم يكن من المستحيل ملاحظة لهجته الودية وهو يقـــول هذا ...

وقد رد عليه الحلاق قائلا :

ـ المكنسة أحسن ... لاصطياد الساحرات ليس هناك ســـلاح افضل من المكنســة ...

قال الحلاق هذا دون ان ينظر اليه ، اذ كان يقص شعر اول زبون من زبائن الصباح ، وهو لم يحمل كلام العمدة على محمل الجد ... ولكن عندما رآه يتأكد من الموجـودين من افــراد الاحتيـــاطى وهم بذلك يصلحون لحمل البنادق ـ عندها فقط فهم الحلاق انه واحد من المختارين ... وقال :

ـ هل صحيح ياحضرة الملازم انك ستحشرنا فى هذه المشكلة ؟..

فرد العمدة قائلا : عجيب !.. كنتم طول حياتكم تتهامســـون لاجل بندقية ، والآن وقد اصبحت فى متناول اليد ، لا يمكنكم أن تصدقوا !..

ووقف العمدة امام الحلاق ، فى وضع يشاهد فيه جميع الموجودين فى المرآة ، وقال منحازا الى أسلوب الحاكم المطلق :

ـ بجد ، عند الساعة السادسة هذا المساء ، على أفراد الاحتياطى من الدرجة الاولى أن يتواجدوا فى الثكنات ...

فواجهه الحلاق فى المرآة قائلا :

ـ وماذا اذا أنا ذهبت مصابا بالتهاب رئوى ؟..

فرد العمدة قائلا : سوف نشفيك فى السجن ...

وفى البار كان الفونوغراف يعزف أغنية عاطفية .. لكن المكان كان خاليا ، وان بقيت على بعض الموائد زجاجات وكؤوس لم يتم شربها ...

وقال دون روك حين شاهد العمدة داخلا :

ـ هذه حقيقة ورطة كبيرة ... سوف نضطر الى اغلاق البار فى الساعة السابعة ...

فاتجه العمدة راسا الى آخر القاعة حيث بدت موائد لعب الورق مهجورة أيضا ... ففتح باب دورة المياه ، واطل فى المخزن ، ثم عاد الى البار ، حيث قال له دون روك من خلف المنصة :

ـ مع هذه الورطة ، سيضطر الانسان أن يتجه الى التهريب ..

فقال العمدة : سيدوم هذا يومين أو ثلاثة فقط ...

وعند الناصية لحق به مدير السينما ، وقال صائحا :

ـ هذا ماكان ينقصنى ... بعد أجراس المنع من جانب القسيس، سنسمع الآن نفير حظر التجول !..

فربت العمدة على كتفه وحاول أن يتابع طريقه ، قائلا :

ـ سوف ننزع ملكية السينما منك ...

فقال المدير : لا يمكنك ... ان السينما ليست من المرافق العامة .

فرد العمدة قائلا : فى حالة الطوارىء ، حتى السينما يمكن اعتبارها من المرافق العامة ...

وعند هذا الحد فقط تلاشت ابتسامته ... ولما وصل الى الثكنات أسرع يرتقى درجات السلالم اثنتين اثنتين ، وعند الدور الثانى فتح ذراعيه وعاد الى الضحك من جديد ، وهتف قائلا :

ـ وانت أيضا ؟! ..

كان الجالس فى الكرسي المنطوى رئيس السيرك ... وكان يدخن غليونا وهو خلى البال ... ومالبث أن أشار الى العمدة بالجلوس وكأنه صاحب الدار ، وقال له :

ـ لنتكلم كلام الاعمال ياحضرة الملازم ...

فجذب العمدة مقعدا وجلس فى مواجهته ... فأمسك رئيس السيرك الغليون بيده المرصعة بالاحجار الملونة وقال بلهجة معنوية :

ـ هل يمكننا أن نتكلم بصراحة مطلقة ؟

ولما أومأ العمدة ايجابا قال الرجل :

ـ اننى عرفت حقيقة الحال عندما رأيتك أمس تحلق ... ان لى خبرة بمعرفة الناس ... وأنا أعرف مسألة حظر التجول هذه بالنسبة لك ..

تطلع اليه العمدة متفكيا ، بينما مضى الرجل يقول :

ـ ... اما بالنسبة لى ، فاننى ازاء سداد الالتزامات واطعام سبعة عشر شخصا وتسعة حيوانات ، اجدنى أمام كارثة ...

ـ هكذا ؟..

فقال رئيس السيرك : ولهذا فاننى اقترح ان يبدا منع التجول فى الساعة الحادية عشرة بدلا من الثامنة ، وسنقتسم الارباح مناصفة فى الحفلة المسائية .

مضى العمدة فى ابتسامته ، وقال :

ـ أظن أنه لم يكن من الصعب أن تجد شخصا من اهل البلدة قال لك أننى لص ! ...

فقال رئيس السيرك : هذه صفقة تجارية مشروعة ..

فقال العمدة وقد اكتست ملامحه سمات الجد : سنتكلم فى هذه المسألة يوم الاثنين ..

فرد الرجل قائلا : الى يوم الاثنين اكون قد بعت جلدى ... نحن اناس فقراء ...

فقال العمدة وقد صحبه الى السلالم مربتا على كتفه : لا حاجة بك الى أن تقول لى هذا ... اننى أعرف كل شىء عن هذا العمل ..

وقبل أن يبدأ رئيس السيرك فى النزول قال له العمدة بلهجة المواساة :

ـ ابعث الى بكاساندرا هذه الليلة ..

حاول الرجل أن يتلفت نحوه ، بيد أن العمدة ضغط على كتفه بصورة قاطعة ... فقال رئيس السيرك :

ـ طبعا ... وهذا مخصوم من الحساب ...

فقال العمدة باصرار : ارسلها . وسنتكلم غدا ..

***

دفع بنيامين البقال الباب المظلل بأنامل أصابعه ، بيد انه لم يدخل البيت ... وهتف باهتياج مكظوم :

ـ النوافذ يانورا !..

كانت نورا جاكوب ، الناضجة والمليئة ، ذات الشعر المقصوص على طريقة الرجال ، ممددة أمام المروحة الكهربائية فى غرفة المعيشة المعتمة ... كانت تنتظر بنيامين لتناول الغداء .. وما أن سمعت نداءه حتى نهضت بمشقة وفتحت النوافذ الاربع المطلة على الشارع ... وسرعان ماتدفقت موجة حارة الى الغرفة ذات الزخارف الطاووسية والاثاث المكسو بقماش ذى أزهار مطبوعة ، ولكن هذا التأثيث كله كان ينم عن ترف متواضع ..

قالت له : ماهى الحقيقة فيما يقوله الناس ؟..

ـ انهم يقولون اشياء كثيرة ...

فقالت نورا جاكوب بالتحديد : بخصوص الارملة مونتيل .. انهم يطوفون فى كل مكان قائلين أنها جنت ...

فقال بنيامين : اظن انها فقدت عقلها منذ مدة ... وفى هذا الصباح حاولت أن تقفز من شرفتها ...

كانت المائدة ، المرئية من الشارع تماما ، قد وضع مقعدان فقط عند طرفيها المتقابلين ، فقالت نورا وهى تصفق بيديها لاحضار الغداء :

ـ هذا عقاب من الله ..

ولما جاءت بالمروحة الى غرفة الطعام قال بنيامين :

ـ ان بيتها ظل ممتلئا بالناس منذ هذا الصباح ...

فردت نورا جاكوب قائلة :

ـ هذه فرصة طيبة لرؤية المنزل من الداخل ! ..

وجاءت فتاة سوداء مرشقة الشعر « بفيونكات » حمراء كثيرة تحمل الحساء الباخر الى المائدة ... فشاعت فى الفرفة رائحـة الدجاج المسلوق وغدت درجة الحرارة لا تطاق ... فشد بنيامين فوطة المائدة الى ياقته قائلا : « فى صحتك » ... وحاول أن يحتسى الملعقة الساخنة ، فقالت له بضيق :

ـ انفخ فيها ، ولا تكن أبله ... والى جانب هذا لابد ان تخلع سترتك ... ثم ان تدقيقك فى عدم دخول البيت والنوافذ مغلقـة سيجعلنا نموت من الحر !

فقال : هذا شيء لايمكن الاستغناء عنه أكثر من أى وقت مضى .. بفتح النوافذ لن يستطيع أحد أن يقول انه لم يشهد من الشارع كل حركة من حركاتى عندما أكون فى بيتك ..

فافتر فمها المعوج قليلا عن لثة قانية الحمرة كانت هى ابتسامتها، وقالت :

ـ لا تكن سخيفا ... فيما يختص بى ، فان لهم أن يقولوا كل مايحلو لهم ..

ولما استطاعت أن تشرب الحساء مضت تقول بين الوقفات :

ـ ربما أقلق حقيقة لما قد يقولونه عن مونيكا « ابنتها البالغة من العمر خمسة عشر عاما والتى لم تعد الى البيت أثناء العطلات المدرسية منذ أن سافرت الى المدرسة لاول مرة » .. لكنهم لن يستطيعوا أن يقولوا عنى شيئا كل انسان أصبح يعرفه فعلا ...

لم يصوب بنيامين اليها نظرة الاستنكار المعهودة منه كلما كانت تقول له هذا الكلام ... وراحا يتناولان الحساء صامتين ، تفصلهما مائدة الستة أقدام ، وهى أقصر مسافة يمكن أن يسمح بهـا ، خصوصا أمام أعين الناس ... وعندما كانت بعيدة عنه فى المدرسة ، منذ عشرين عاما ، كان يكتب اليها رسائل تقليدية مطولة ، كانت ترد عليها برسائل حارة العاطفة .. وفى احدى الاجازات المدرسية ، وفى رحلة خلوية ، جذبها نستور بنيامين من شعرها وهو سكران تماما الى ركن ازريبة ، وصارحها قائلا دون أن يترك لها اى خيار : « اذا لم تتزوجينى فسأطلق عليك النار » ... وقد تزوجا فى نهاية العطلة المدرسية ... ثم انفصلا بعد عشر سنوات ..

ومهما يكن فقد قال لها بنيامين تعقيبا على كلامها :

ـ على أى حال لا سبب يدعو الى اثارة تخيلات الناس بأقفال الابواب والنوافذ ..

وبعد أن شرب القهوة نهض قائلا :

ـ سأذهب الآن ... ان مينا لابد أن تكون على نار ...

ولما وصل الى الباب اردف وهو يلبس قبعته :

ـ البيت مثل فرن متقد !..

فردت عليه قائلة : هذا ماكنت اقوله لك طول الوقت !..

وانتظرت حتى شاهدته من النافذة الاخيرة يبتعد ، وعندئذ أعادت المروحة الى غرفة النوم وأغلقت الباب ، وتجردت تماما من ملابسها ، وفى النهاية دلفت الى الحمام كعادتها كل يوم بعد الغداء ..

كانت تبصر نستور بنيامين اربع مرات كل يوم وهو يمر امام البيت ... وكان كل انسان يعرف أنه يعيش مع امرأة أخرى ، وان له منها اربعة أطفال ، وانه يعتبر ابا مثاليا ... ومرات عديدة على مدى الاعوام القلائل الماضية ، كان يمر أمام المنزل مع الاطفال ، ولكن لم يمر مع المرأة بتاتا ... ولقد شهدته وهو يأخذ فى النحول ، والكبر والشحوب ، وهو يتحول الى شخص غريب عنها بدا تعلقه الماضى بها غير مفهوم ... وأحيانا كانت فى أثناء فترات قيلولتها الفردية تشتهيه من جديد ، لا كما كانت تراه وهو يمر أمام المنزل ، ولكن كما كان أثناء الزمن الذى سبق مولد ابنتها مونيكا ، حين كان حبه لم يجعل منه مثل الآن شخصا لايطاق ...

***

نام القاضى أركادبو حتى الظهر ، وهكذا لم يعلم بالامر العالى حتى وصل الى مكتبه .. ولكن سكرتيره من ناحية أخرى تملكه الانزعاج عندما طلب اليه العمدة أن يعد الوثيقة ...

وقال القاضى اركاديو بعد ان اطلع على التفاصيل :

ـ ان الامر صيغ بعبارات صارمة ... لم يكن لهذا موجب ..

ـ هو نفس الامر العالى مثل كل مرة ...

فقال القاضى : هذا صحيح .. لكن الامور تغيرت ، والاسلوب قد تغير أيضا .. لابد أن الناس قد أصابهم الفزع ..

ومع ذلك ، طبقا لما اكتشفه القاضى أركاديو فيما بعد وهو يلعب الورق فى البار ، فان الخوف لم يكن هو الاحساس الغالب ... كان احساسا بالانتصار الجماعى ، بما أكده فى وعى كل الناس ، من أن الامور لم تتغير عما كانت ... ولم يستطع القاضى أركاديو أن يستدرج العمدة الى حقيقة الوضع عندما غادرا البار ، اذ قال له :

ـ وهكذا ترى أن « الملصقات الفاحشة » لم تكن تبرر هذا التعب ... فالناس سعداء ...

فجذبه العمدة من ذراعه قائلا : لم يعمل شىء ضد الشعب ... هذا مجرد اجراء روتينى ...

واسرع العمدة فى سيره كانما يوشك على شىء عاجل ، وان كان المرء يدرك بعد أن يطول به السير أنه لم يكن يقصد وجهة معينة ... ثم أردف قائلا :

ـ ان هذا الاجراء لن يدوم الى الابد .. فبحلول يوم الاحد سنكون قد قبضنا على المهرج الذى هو وراء هذه الملصقات الفاحشة ... ولست اعرف سببا لفكرتى هذه ، ولكننى اظن انه امراة ...

لم يشاطره القاضى أركاديو هذا التفكير ، وعلى الرغم مما شاب المعلومات التى جمعها السكرتير من تهاون ، فقد كان اعتقاد القاضى ان الملصقات لم تكن من عمل فرد واحد ... اذ بدا له انها لم تتبع نهجا معينا ... وكان بعضها فى الايام الاخيرة قد اتبع نهجا آخر ، هو الرسوم ... وقد اختتم القاضى اركاديو قائلا :

ـ قد يكون الفاعل رجالا ونساء مختلفين ... كل منهم يعمل لنفسه ..

فرد عليه العمدة قائلا : لا تعقد الامور امامى ايها القاضى ... يجب أن تعرف انه فى كل مشكلة ، حتى لو كان المسئول فيها عددا من الناس ، فهناك دائما واحد تقع عليه التبعة ...

فقال القاضى أركاديو : هكذا قال الفيلسوف ارسطو يا حضرة الملازم ...

ثم أضاف باقتناع : على اى حال فان الاجراءات التى اتخذت تبدو فى نظرى متطرفة ... وان الاشخاص الذين يضعون الملصقات سوف ينتظرون ببساطة انتهاء حظر التجل ...

فقال العمدة : هذا لايهم ... فى النهاية لابد لنا من الحفاظ على مبدأ السلطة ...

وكان المتطوعون قد بدأوا يتجمعون فى الثكنات ... ان الحوش الصغير المحاط بأسوار الاسمنت المسلح العالية والملطخ بالدم الجاف وثقوب الرصاص كان مذكرا بالاوقات التى لم تكن توجد فيها زنزانات كافية ، وكان السجناء ، يحجزون فى الحوش .. وبعد ظهر هذا اليوم كان جنود البوليس غير المسلحين يتجولون خلال الردهات وهم « بالشورت » ... وفجأة صاح العمدة لدى الباب :

ــ روفيرا ... أحضر لهؤلاء الاولاد شيئا يشربونه ..

راح الجندى يلبس زيه ، وسأل : روم ؟..

فصاح العمدة وهو فى طريقه الى مكتبه المصفح : يا مغفل ! مياه غازية ...

ولما ابصرهم القاضى أركاديو من الدور الثانى جالسين فى الحوش يدخنون قال للعمدة : هل هم متطوعون ؟..

فأجاب العمدة : ياليت هذا ... اننى اضطررت الى سحبهم من تحت أسرة نومهم سحبا ...

فقال القاضى : يبدو لى كأن المعارضة هى التى جمعتهم ...

وعندما فتحت الابواب الفولاذية الثقيلة للمكتب انبعثت برودة ثلجية ... وقد رد العمدة معقبا على ملاحظة القاضى وهو يبتسم :

ــ اذا صح ماقلت ، فمعناه أنهم صالحون للقتال !..

واضاء النور فى حصنه هذا ... وكان فى طرف منه سرير عسكرى ودورق زجاجى وكوب فوق مقعد .. وتراصت على الجدران العارية بنادق عادية وبنادق رشاشة ... ولم يكن بالحجرة منافذ للتهوية سوى طاقات ضيقة عالية يمكن الاشراف منها على ارصفة الميناء النهرى والشارعين الرئيسيين فى البلدة ... وكان المكتب لدى الطرف الآخر ، بجانب الخزانة ...

وعكف العمدة على ادارة تركيبة قفل الخزانة ، قائلا :

ــ لكن هذا لايهم ... سأعطيهم جميعا بنادق ...

وجاء جندى البوليس . فأعطاه العمدة بعض أوراق بنـسكنوت قائلا :

ـ هات لكل واحد منهم علبتى سجائر ...

وعندما صارا وحدهما مرة أخرى عاد العمدة يقول للقاضى :

ـ مارأيك فى هذه المشكلة ؟..

فأجاب القاضى متأملا : مخاطرة لافائدة منها ...

فقال العمدة : ان الناس سوف يقفون وافواههم مفتوحة ... واظن فضلا عن هذا ان هؤلاء « المناكيد » لن يعرفوا ماذا يفعلون بالبنادق ..

فقال القاضى : قد يرتبكون فعلا .. لكن هذا لن يدوم طويلا ..

وبذل القاضى جهدا للتغلب على الشعور بالخواء فى معدته ، ثم قال ساهما :

ـ احذر ياحضرة الملازم ... لا تكن انت الشخص الذى يدمر كل شىء ...

فخرج به العمدة من المكتب وهمس فى اذنه بلهجة خفية :

ـ لا تكن ابله أيها القاضى ... لن يكون معهم سوى خرطـوش فارغ ...

وعندما نزلا الى الحوش كانت الانوار مضاءة ... وكان المتطوعون يشربون مياها غازية بين أسراب ذباب الخيل التى كانت تلقى بثقلها على المصابيح المتسخة ... وانشأ العمدة وهو يتمشى فى الحـوش الذى كانت تتخلله برك المياه الراكدة يشرح للمتطوعين بلهجة ابوية مهمتهم فى هذه الليلة : فسوف يوقفون اثنين اثنين على النـــواحى الرئيسية بأوامر تقضى باطلاق النار على اى واحد كان ، رجـلا او امرأة ، اذا عصا النداء الثلاثى بالوقوف ... واوصـــاهم بالتزام البسالة والحكمة ... وبعد منتصف الليل سوف يزودون بالطعام ... وقال العمدة انه يأمل بعون من الله أن كل شىء سيتم دون اية متاعب ، وأن البلدة ستعرف كيف تقدر هذا الجهد من جـــانب السلطات ، لصالح النظام الاجتماعى ! ..

نهض الاب أنجيلو عن المائدة حين دقت الساعة الثامنة ... قاطعا نور الحوش ، وجذب الزلاج على الباب ، وصلى ..

وعند مدخل دارها كانت الارملة آسيز ناعسة فى طراوة المدخل قرب أقفاص الطيور المكسوة بقماش أسود ، عندما سمعت الدقة الثانية ، فقالت دون أن تفتح عينيها :

ـ الم يأت روبرتو بعد ؟..

فردت خادمة كانت قاعدة عند الباب بأنه فى الفراش منذ الساعة السابعة ...

ولم يكن طبيب الاسنان قد فرغ بعد من الاستماع الى نشرة الاخبار ... ولما تذكر أن ابنته انجيلا كانت تحل ألغاز الكلمات المتقاطعة تحت مصباح الحوش ، أمرها دون أن ينظر قائلا :

ـ اقفلى الباب الكبير وادخلى وحلى الكلمات فى غرفتك ... واستيقظت زوجته على هذا الكلام مفزوعة ...

ولم يلبث روبرتو آسيز الذى كان فى الفراش منذ السابعة فعلا ، ان قام لينظر الى الميدان من خلال النافذة المواربة ، فلم يبصر سوى اشجار اللوز القاتمة والضوء الاخير الذى كان ينبعث من نافذة شرفة الارملة مونتيل ... فأضاءت زوجته النور ، وبهمسة مكتومة جعلته يعود الى الفراش ... وعلى البعد كانت الكلاب تنبح ..

وفى غرفة نوم دون لالومو مسكيت التى تكدست فيها العلب والزجاجات الفارغة ، كان الصيدلى يغط فى النوم والجريدة مبسوطة على بطنه ونظارته فوق جبينه ... وكانت زوجته المشلولة التى روعتها ذكرى ليال سابقة مثل هذه الليلة تهش البعوض بخرقة وهى لا تفتأ تعد الساعات فى ذهنها ... وبعد أن تلاشى نباح الكلاب والصيحات المتباعدة وجرى الاقدام المتخفى ، ساد السكون مطبقا ..

وفى منزل الدكتور جيرالدو قال الطبيب لزوجته التى كانت تضع ادوية الطوارىء فى حقيبته قبل أن يأويا الى الفراش :

ـ تأكدى من وجود الكورامين ...

والواقع أن كليهما كان يفكر فى الارملة مونتيل ، التى كانت راقدة مثل جثة بتأثير ماتعاطته من عقاقير مسكنة ...

وطوى الدكتور جيرالدو كتابا بيده حتى تلاشى تموج نفير بدء حظر التجول فى الثامنة ... فوضعت زوجته الحقيبة على المنضدة الليلية وتمددت ووجهها الى الحائط واطفأت مصباحها ... وفتح الطبيب

الكتاب ولكنه لم يقرأ ... وكان كلاهما يتنفس تنفسا متقطعا وهما وحدهما فى بلدة أحالها السكن الشامل المطبق الى حيز غـــرفة نوم ...

قالت له : فيم تفكر ؟ ..

ـ لا شيء ...

ولم يركز الطبيب أفكاره مرة أخرى الا فى الساعة الحادية عشرة حين عاد الى ذات الصفحة التى توقف عندها عندما سرى حظـــر التجول فى الثامنة ... لكنه ثنى زاوية الصفحة ووضع الكتاب على المنضدة ... وكانت زوجته قد استسلمت للنوم ... وفى الاوقات السابقة كان الاثنان يظلان مستيقظين حتى الفجر ، محاولين تحديد مكان وظروف الرصاص المنطلق ... ومرات كثيرة كانت اصـوات الاحذية العسكرية والاسلحة تصل الى باب بيتهما ، فيجلسان فى الفراش منتظرين سماع طلقات الرصاص التى تهشم بابهما ... وكم من الليالى ـ بعد معرفتهما كيف يميزان بين اشكال الارهاب التى لا حصر لها ـ لم تذق عيونهما النوم ورأساهما فوق الوسادة مسهدين مترقبين ...

وفى فجر احدى الليالى سمعا الصوت المتخفى الذى يسبق وابل الرصاص ، وعند ذاك ينبعث صوت العمدة المرهق قائلا لزبانيته : « ليس هنا ... انه غير مشترك فى أى شيء » ...

وفى هذه الليلة بدأ سقوط المطر بعد منتصف الليل .. فتخلى الحلاق ومتطوع آخر عن دركهما عند ناصية الارصفة النهرية واحتميا من المطر تحت افريز سقف دكان بنيامين البقال ... ومالبث الحلاق أن أشعل سيجارة وجعل يفحص نوع البندقية فى لهب الثقاب ، فى اللحظة التى تدفق فيها سيل المطر من الافريز وغمر كعب بندقية زميله ، الذى جفف الماء بكمه قائلا :

ـ يالها من مشكلة غريبة ! .. ها نحن الاثنين هنا ، وكل منا ببندقيته ، والمطر يغمرنا ! ..

ومن البلدة التى اطفئت أنوارها لم تكن تسمع أية أصوات سوى تساقط المياه من حواف الافاريز ...

وقال الحلاق لصاحبه : كلنا تسعة ، مع العمدة ... ولكن هناك ثلاثة محبوسون في الثكنات ...

وفجأة انبعث وهج بطارية العمدة فأعمى بصرهما ، ولم يعرفاه الا بعد أن اطفأ البطارية ويمم نحوهما تحت حماية الافريز ... كان يرتدى معطف خنادق وقد علق فوق كتفه بندقية رشاشة ، يرافقه جندى بوليس ... وبعد ان نظر فى ساعة يده قال للجندى :

ـ اذهب الى الثكنات وانظر ماذا جرى للطعام ...

فاختفى الجندى فى المطر بحيوية المقاتل فى الميدان ... وعندئذ جلس العمدة على الارض بجانب المتطوعين وسأل : هل من مشكلة ؟..

فأجاب الحلاق : لا شيء ... الى متى ياحضرة الملازم سوف تبقينا هكذا ؟ ...

فأجاب العمدة : لا اعرف .. حاليا ، الى نهاية فترة حظر التجول ... سنرى ماذا يحدث غدا ...

فهتف الحلاق : حتى الخامسة !.

فقال زميله : اما انا فكنت على اقدامى منذ الرابعة ..

فالتفت العمدة اليه وقال مغتما : لا تقل لى ... اننى امضيت نصف حياتى فى هذه المشكلة .. سوف يغمى على من قلة النوم ..

فقال الحلاق : بغير داع .. هذا شيء غير مفهوم بالمرة .. هو أشبه بما تفعله النساء ..

فتنهد العمدة قائلا : اننى بدات أفكر هذا التفكير ...

وعاد جندى البوليس لكى يبلغ انهم ينتظرون توقف المطر للطواف بالطعام ... ثم أبلغ رسالة أخرى ... فقد قبض على امرأة بغير تصريح مرور ، وهى تنتظر العمدة فى الثكنات ..

كانت المراة كاساندرا ... وقد وجدها العمدة نائمة فى الكرسى المنطوى ملتفة بحرملة من المطاط فى الغرفة الصغيرة المضاءة بالمصباح المعتم فى الشرفة ... فقرصها العمدة فى أنفها ، فانتفضت متأوهة ، وفتحت عينيها ... وقالت :

ـ كنت أحلم ...

اضاء العمدة مصباح الغرفة ، فرفعت يديها الى عينيهـــا تتقى الوهج متثنية متذمرة برهة ، وقالت :

ـ أنت شخص غريب ... أنا هنا منذ الحادية عشرة ..

فقال معتذرا : كنت أنتظرك فى البيت ..

ـ لم يكن معى تصريح مرور ...

فقال العمدة باسما وهو يعلق معطفه :

ـ انني نسيت تماما ..

واخذ كرسيا وضعه بجانبها قائلا : ارجو الا يكونوا حســـبوك الشخص الذى يعلق الملصقات ...

عادت المراة الى الاسترخاء ، وقالت : ياليتهم فعلوا هذا ... اننى أعشق المواقف المشحونة بالعواطف القوية ...

وفجأة بدا العمدة تائها فى الغرفة ... بدا كالاعـــزل ، وراح « يطرقع » عقل اصابعه ، ثم غمغم قائلا :

ـ أريد منك معروفا ...

جعلت تتفرس فيه ... فمضى يقول : كلام بيني وبينك ... اريد منك أن تقرئى الورق لترى ان كان يمكن أن نكتشف من هو المسئول عن هذه الورطة ...

أشاحت براسها عنه ... وبعد صمت قصير الامد قالت :

ـ فهمت ...

فقال العمدة يستحثها : اننى افعل كل هذا من اجلكم ياناس اكثر من اى شىء آخر ...

فأومأت براسها ، وقالت : اننى عملت هذا فعلا ...

لم يستطع العمدة أن يكتم قلقه المشتد ، بينما مضت كاساندرا تقول بلهجة درامية محسوبة : ان الشواهد كانت واضحة جدا الى حد اننى ارتعبت بعد أن رايتها على مائدة الاوراق ...

ـ من هو الفاعل ؟..

ـ البلدة كلها ... ولا احد بعينه !..

الفصل الثامن

جاء ابناء الارملة آسيز لحضور القداس يوم الاحد .. كانوا سبعة بالاضافة الى روبرتو آسيز ... وكان لهم طابع مشترك ، هو القوة البدنية ، والخشونة ، والاقبال على العمل الشاق ، والطاعة العمياء لامهم ... وكان روبرتو آسيز أصغرهم والوحيد الذى تزوج بينهم ، كان بوداعته وشمائله الرقيقة المباينة لطباع أخوته ، أقرب الى تعويض الام عن مشاعر اللهف التى طالما احست بها انتظارا لانجاب بنت لم يقدر لها أن ترزق بها ...

وبعد أن امرت الارملة آسيز بنقل ماجاءوا به من دجاج وخضر وجبن وسكر ولحم مقدد الى الاماكن المعدة لها ، كلفت الخادمات باختيار أطايبها وارساله الى الاب انجيلو ...

لقد شكر الاب انجيلو هذه الهدايا ودعا لاصحابها ... وعندما انتقل الى صحن الكنيسة كانت ممتلئة عن آخرها ... واسترعى نظره وجود الارملة آسيز يحف بها أبناؤها ، وربيكا آسيز زوجة الابن الاصغر ... ولقد استغرقت موعظة الاب أنجيلو عشر دقائق ، شردت منه خلالها غير واحدة من الافكار التى أعدها سلفا فى خلوته ... ثم انه اختتم الموعظة دون اشارة الى موضوع الملصقات الفاحشة ...

وكانت زيارة الارملة آسير وأبنائها للكنيسة مثار تعليق بين الدكتور جيرالدو وزوجته عندما ابلغته هذا الخبر قبيل افطارهما صباح هذا الاحد ، وفى هذا قال الطبيب :

ـ اذن فالارملة آسيز عادت الى زيارة الكنيسة مرة أخرى ؟..

فقالت الزوجة : انها ذهبت مع أسرتها ثلاث مرات هذه السنة . ... والظاهر أنهم لن يجدوا وسيلة أفضل من هذه للترفيه عن انفسهم ! ...

فقال الطبيب : الاغنياء مجانين ..

ومهما يكن فقد انصرف الدكتور جيرالدو لعيادة الارملة مونتيل ..

وفى طريقه صادف بعض النساء العائدات من الكنيسة يعرجن على منزل الارملة لزيارتها ... ولما دخل عليها وجدها جالسة فى الفراش مرسلة الشعر ، رافعة حافة الملاءة الى صدرها وفى حجرها مشط ومرآة ومن حوليها بعض الزائرات ... وقد استقبلته الارملة قائلة :

ـ اذن فقد قررت أن تحضر الى « حفل الاستقبال » أنت ايضا !.

فقالت احداهن : انها تحتفل بعيد ميلادها الخامس عشر ...

فقالت الارملة مونتيل مصممة بابتسامة محزونة :

ـ الثامن عشر فى الحقيقة ..!

ثم تمددت فى الفراش من جديد وجذبت الملاءة حتى الرقبة ، واضافت مداعبة :

ـ طبعا لم ندع أحدا من الرجال ، خصوصا أنت يادكتور ، وهذا حظ سيىء !..

فقال الطبيب مبتسما رهو يتفرس فى مريضته : انت فى حالة ممتازة ... وقد ادركت الآن انه لا لزوم لى هنا ..

على أنه التفت الى الزائرات قائلا بلهجة المعتذر : هل تسمحن لى ؟ ...

وما أن صارا وحدهما حتى اكتست ملامح الارملة مونتيل بعلائم المريضة من جديد ، بيد ان الطبيب اغضى واستمر يتكلم بلهجته المداعبة وهو يضع الادوات التى كان يخرجها من حقيبته على المنضدة ...

ولم تلبث الارملة أن قالت مستعطفة : ارجوك يادكتور .. لا حقن بعد ... ان جسمى اصبح كالغربال ...

فقال الطبيب باسما : ان الحقن هى اعظم اختراع لكى يأكل الاطباء ..

فابتسمت مثله قائلة وهى تلمس عجزها : صدقنى ... هذا الجزء كله ملتهب ... ولا أستطيع حتى لمسه ...

ـ لا تلمسيه اذن ...

فقالت وقد زادت ابتساما : تكلم بجد يادكتور ، حتى ولو يوم الاحد فقط ...

فكشف الطبيب عن ذراعها لقياس ضغط الدم قائلا :

ــ ان طبيبى المعالج يمنعنى من هذا ... الجد الشديد مضــــر للكبد ...

ولما أتم قياس الضغط قال وهو يتفحص وجهها بامعان شديد ، بعد أن وضع زجاجة حبوب بيضاء على المنضدة :

ــ اذا كنت لا تريدين حقنا أخرى ، فلن نعطيك هذه الحقن ... خذى فقط حبة من هذا كل ١٢ ساعة ... انت فى حالة صــحية احسن منى ...

فأبدت الارملة اشارة متضجرة قائلة : لم أكن مريضـــة فى أى يوم ...

فرد الطبيب قائلا : وأنا أصدقك ... لكن لابد لنا أن نخترع شيئا لكى نبرر فاتورة الاتعاب ! ...

فسألته متجاهلة تعقيبه : هل يجب أن ألزم الفراش ؟..

فأجاب الطبيب : بالعكس .. اننى احظر هذا تماما .. انزلى الى غرفة المعيشة واهتمى بضيوفك كما يجب ...

ثم اضاف بابتسامة ماكرة : وفضلا عن هذا ... هناك أشــــياء كثيرة يمكن الكلام فيها ...

فهتفت قائلة : رحماك ياربى !.. لا تكن ثرثارا مثلهم !... لابد ان تكون أنت الشخص الذى يضع الملصقات !..

استطاب الدكتور جيرالدو هذه الفكرة ... وفى طريقه الىالخروج اختلس نظرة الى حقيبة السفر الكبيرة الموضوعة فى ركن غرفة النوم وقال لها وهو لدى الباب :

ــ هاتى لى معك هدية عند عودتك من رحلتك حول العالم ..

فردت الارملة وهى تهم بتصفيف شعرها : طبعا يا دكتور ..

لكنها لم تنزل الى الزائرين ... ولزمت الفراش الى ان انصرف آخرهم ... وبعدها ارتدت ملابسها ، وعندما حضر مستر كارميكل وجدها تأكل قرب باب الشرفة الموارب ...

وقد ردت على سلامه دون أن ترفع عينيها عن الشرفة ، قائلة :

ــ فى اعماق نفسى ، أحب تلك المرأة ... انها باسلة ..

فأرسل كارميكل بصره أيضا شطر بيت الارملة آسيز ، حيث كانت

الابواب والنوافذ لم تفتح بعد فى الحادية عشرة ... وقال :
ـ ان لهذا علاقة بطبيعتها .. فامرأة لها مثل جوفها ، الذى خلق لانجاب الذكور فقط ، لا يمكن الا ان تكون هكذا ، كما وصفتها ...
وتحول بنظره الى الارملة مونتيل ، واضاف قائلا :
ـ وانت ايضا مثل زهرة ...
فابتسمت ابتسامة مشرقة ، ثم قالت :
ـ هل تعرف شيئا ؟ .. ان الدكتر جيرالدو مقتنع باننى مجنونة .
ـ ما هذا الكلام !؟ ..
فأومأت الارملة براسها تأكيدا ، ومضت تقول :
ـ ولن يدهشنى اذا كان كلمك عن طريقة لارسالى الى مستشفى المجانين !..
لم يدر كارميكل كيف يتخلص من هذا الجرح ، وقال :
ـ اننى لم اخرج من بيتى طيلة الصباح ...
وتهالك كارميكل فى المقعد الوثير المجاور للفراش ... لقد تذكرت الارملة مونتيل هذا المقعد ، فبين جوانبه هوى جوزيه مونتيل مصابا بنزيف مخى قبيل ربع ساعة من وفاته ...
على انها لم تلبث ان تخلصت من هذه الذكرى قائلة :
ـ هل تكلمت مع صديقنا الطبيب ساباس ؟..
والواقع أن كارميكل امضى يومى الجمعة والسبت وهو يجس نبض دون ساباس ويسبر اغواره العميقة محاولا ان يستشف رد فعله اذا عرضت تركه جوزيه مونتيل للبيع ... وقد ابدى لها كارميكل أن دون ساباس بدا على استعداد للشراء ...
استمعت الارملة مونتيل الى هذه البيانات دون تبرم ... وقالت فى النهاية : اذا لم يتم هذا يوم الاربعاء القادم ، فليكن الاربعاء الذى بعده ... وعلى اى حال فهى على استعداد للارتحال عن البلدة نهائيا قبل انصرام شهر اكتوبر !..
انتزع العمدة مسدسه من جرابه بحركة خاطفة من يده اليسرى ... وكانت عضلاته حتى آخرها متاهبة لاطلاق النار ، حين استفاق تماما وعرف فى الطارق شخص القاضى اركاديو ...
اما القاضى فقد جمد مسمرا ...
وقال له العمدة وهو يرد المسدس الى مكانه : لا تتصرف مثل هذا مرة اخرى ابدا ...

واستلقى على مقعد القماش المنطوى ثانية وهو يقول : ان حاسة السمع عندى تكون مشحوذة عن آخرها وانا نائم ...

فقال القاضى اركاديو : كان الباب مفتوحا ...

كان العمدة قد نسى اغلاق الباب عند الفجر ... فقد كان فى أشد التعب الى حد انه ارتمى فى المقعد ونام فى الحال ...

ـ كم الساعة الآن ؟

فأجاب القاضى أركاديو متهدجا : قريبة من الظهر ...

فقال العمدة : اننى اكاد اموت من شدة حاجتى الى النوم ...

وتثاءب طويلا .. وبدا له كأن الوقت توقف .. وعلى الرغم من طول يقظته ولياليه الساهرة ، استمرت عملية « الملصقات الفاحشة » ... وفى هذا الفجر ذاته وجد قصاصة ورق ملصقة على باب غرفته بهذه الكلمات : « لا تضيع بارود رصاصك هباء منثورا يا حضرة الملازم » ... وفى الشارع سمعهم يقولون بصوت عال ان القائمين بالدوريات الليلية ذاتهم كانوا يضعون « الملصقات الفاحشة » قتلا الوقت فى دورياتهم المضجرة ... وبدا للعمدة ان البلدة كلها تضج بالضحك ...

قال له القاضى أركاديو اخيرا : قم بنا لنأكل شيئا ...

لكن العمدة لم يكن جائعا ... كان يريد ان ينام ساعة اخرى ويأخذ حماما قبل الخروج ... أما القاضى أركاديو ، الذى كان نشطا نظيفا ، فقد كان فى طريق العودة الى داره لتناول الغداء ... وعند مروره بباب العمدة الذى الفاه مفتوحا ، فقد دخل لكى يطلب تصريحا بالمرور فى الشوارع بعد سريان حظر التجول ...

فقال العمدة ببساطة ، وان كان بلهجة ودية :

ـ لا ... الافضل ان تبقى آمنا فى بيتك ...

اشعل القاضى سيجارة وراح يتأمل لهب الثقاب حتى انطفأ دون ان يفتح عليه بكلام ، فأضاف العمدة قائلا :

ـ لا تحمل كلامى على محمل سيىء ... صدقنى اذا قلت لك انى اود ان نتبادل مكانينا ؛ لكى اذهب الى الفراش فى الساعة الثامنة مساء واقوم من النوم عندما يحلو لى ...

فرد القاضى اركاديو بنبرات شفت عن السخرية :

ـ طبعا ... ماكان ينقصنى الا اب عطوف آخر وانا فى الخامسة والثلاثين ! ..

فاتجه العمدة نحوه وراحا يتبادلان النظرات فترة ، فقال العمدة:

ـ أيها القاضي ... لن أعطيك التصريح المطلوب ... مفهوم ؟ ..

عض القاضي على طرف السيجارة وهم أن يقل شيئا ، بيد انه كتم المحاولة .. وسمعه العمدة وهو يهبط السلالم متمهلا ... فناداه ... ولما لم يجب صاح في أثره :

ـ مازلنا أصدقاء ! ...

لكنه لم يسمع ردا ... وظل يتسمع الى أن اغلق الباب ، فبقي العمدة وحيدا مع ذكرياته مرة اخرى ...

انه لم يبذل اي مجهود للنوم ... غدا بعيدا عن النوم في منتصف النهار ، غارقا في وصول بلدة ظلت عدائية ومستعصية على كل فهم ونفوذ الى بواطنها ، بعد طول السنين التي كرت وتعاقبت منذ أن تسلم زمام الامور فيها وتولى تصريف مصائرها ... في فجر ذلك اليوم البعيد ، عندما هبط الى اليابسة خلسة وليس معه سوى حقيبة ملابس عتيقة من الكرتون محزومة بحبل ومزودا بأمر بات للعمل على اخضاع البلدة بأي ثمن ـ في ذلك الحين كان هو الذي قضى عليه أن يذوق معنى الرعب والارهاب ... كان شفيعه الوحيد هو رسالة موجهة الى شخص مغمور من انصار الحكومة ، كان عليه أن يلقاه في اليوم التالي وهو جالس بالشورت قرب باب صومعة أرز .. وبالتعليمات المبلغة اليه ، وبالصرامة البالغة القسوة للسفاحين الثلاثة المأجورين الذين رافقوه ـ تم اداء المهمة التي وكلت اليه ... ولو انقشع عنه وقتها حجاب الغيب ولم تلتف حوله خيوط العناكب المتكاثفة التي نادها الزمن التفافا حوله ـ لاحتاج الى ومضة بصيرة خاطفة لكي يعرف أي الفريقين اخضع الاخر وطوعه لارادته ...

وظل يحلم وهو مفتوح العينين قرب الشرفة التي كان يلدعها المطر حتى بعد الساعة الرابعة بقليل ... وعندئذ استحم ولبس كسوة الميدان وقام بتفتيش روتيني في الثكنات ، وفجأة الفى نفسه واقفا عند ناصية ويداه في جيوبه ولا يدري ماذا يفعل ...

وبعد جولة على غير هدى سمع لغطا في الشوارع لم يتبين مبعثه الا بعد أن رجع الى الثكنات ... فارتقى السلالم وثبا دون أي التفات الى الجماعات التي كانت حول الباب ... وتقدم للقائه جندي بوليس وناوله قصاصة ورق ، فلم يحتج الى اكثر من نظرة لكي يعرف مضمونها ... وقال له الجندي ..

ـ كان يوزعها على الناس علنا ...

جرى العمدة فى الردهة وفتح أول زنزانة ووقف ويده على لسان الباب يتفحص فى العتمة حتى استطاع أن يبصر ، فرأى فتى فى نحو العشرين ، بوجه ناحل مبقع من أثر الجدرى ، وكان يلبس « كاب » البيزبول وعلى عينيه نظارة مكسورة الزجاج ...

ـ ما اسمك !...

ـ بيب ...

ـ بيب ماذا ؟

ـ ببيب امادور

تأمله العمدة فترة محاولا ان يتذكر ... وكان الفتى جالسا على الافريز الاسمنتى المتخذ فراشا للسجناء ، وبدا هادئا ... ولم يدخل العمدة الى الزنزانة ، وظل يرمقه بنظره ساهما ، ثم قال له وهو يهم باغلاق الباب ...

ـ حسن يابيب ... لقد اوقعت نفسك فى مصيبة ...

وأدار المفتاح فى القفل ووضعه فى جيبه ، وانتقل الى غرفة الانتظار لكى يقرأ المنشور السرى ويعيد قراءته ...

لقد جلس قرب الشرفة المفتوحة يلطم البعوض ، بينما كانت الانوار فى الشوارع المهجورة تضاء تباعا ... كان يعرف سكينة الاصيل هذه ... فيما مضى من الزمان ، اثناء أصيل هادىء كهذا ، كانت له القوة فى عنفوانها والسلطان فى ذروته ... ولم يتمالك أن قال لنفسه بصوت مرتفع :

ـ اذن لقد عادت المنشورات السرية !..

نعم عادت ... وكانت مطبوعة على الوجهين ، وكان يمكن معرفتها فى أى مكان وفى أى زمان بذلك الاهتزاز الذى يشوب أكثر المطبوعات السرية ...

وظل العمدة يفكر طويلا فى العتمة وهو يبسط ويطوى الورقة قبلما اتخذ قراره ... وفى النهاية وضعها فى جيبه وبحث عن مفتاح الزنزانة ونادى قائلا : روفيرا ! ...

فجاء من خلال الظلام الرجل الذى يثق فيه ، فأعطاه المفتاح قائلا :

ـ تول أمر ذلك الولد ... حاول اقناعه بأن يعطيك اسماء الاشخاص الذين يدخلون الدعاية السرية الى البلدة ... واذا لم تستطع ان تعرف بطريقة معقولة ، فحاول بأية طريقة تراها أن تجعله يتكلم ...

فذكره الرجل بأنه مكلف بالعمل في الدورية هذه الليلة ... فقال العمدة :

ـ انس هذا ... لا تشغل بالك بأي شيء حتى تصلك اوامر جديدة ... ومسألة اخرى ...

قالها كأنما هبط عليه الهام ، واضاف : اصرف أولئك المتطوعين الموجودين في الحوش ... لن تسير دوريات هذه الليلة ...

واستدعى الى مكتبه المصفح الجنود الثلاثة الذين لزموا الثكنات بأمر منه ... فأمرهم الآن بارتداء الكسى العسكرية التي احتفظ بها في دولابه الخاص ... واثناء قيامهم بهذا جمع الخرطوش الفارغ الذي كان قد وزعه على متطوعي الدورية في الليالي السالفة ، ثم اخرج من الخزانة ذخيرة حية ... واخيرا قال لرجاله وهو يفتش على البنادق لكي يعطيهم احسنها :

ـ هذه الليلة ستكلفون بالدورية ... وليس مطلوبا منكم ان تفعلوا شيئا سوى أن تجعلوا الناس يعرفون انكم انتم الافراد المكلفون في الشوارع ...

وبعد أن تقلدوا أسلحتهم وزع عليهم الذخيرة الحية ، ثم وقف امامهم قائلا :

ـ لكن استمعوا جيدا لشيء واحد ... ان اول واحد منكم يرتكب عملا طائشا سوف يعدم رميا بالرصاص امام سور الحوش .... مفهوم ؟ ...

أصغى الرجال الثلاثة الى آخر كلمة منه وهم يضعون الرصاص في خزانات البنادق ... وكان اثنان منهم بملامح الهنود ، والثالث اشقر شديد زرقة العينين وادنى الى المردة ... وما لبثوا ان وقفوا « انتباه » قائلين : مفهوم ياحضرة الملازم ...

ثم اردف العمدة بلهجة غير لهجته العسكرية :

ـ ومسألة اخرى ... ان ابناء اسرة آسيز موجودون في البلدة ، ولن يكون شيئا غريبا اذا صادفتم واحدا منهم في حالة سكر

واستعداد للدخول فى مشاكل ... فمهما يحدث ، لا تورطوا أنفسكم معه ... مفهوم ؟..

ـ مفهوم يا حضرة الملازم ..

قالوها هذه المرة بغير لهجتهم السالفة .. فاختتم العمدة قائلا :

ـ اذن فقد عرفتم كل شيء ... انتبهوا بكل حواسكم ...

***

عندما أغلق الاب انجيلو الكنيسة قبل موعدها المسائى بساعة بسبب حظر التجول ، نفذت الى انفه رائحة كريهة ... ولما بحث عرف مصدرها ... فان ترينيداد التى مرضت منذ يوم السبت لم ترفع الفئران الميتة ... فتولى بنفسه تنظيف المصائد ، ثم انتقل الى بيت مينا على مسافة مربعين سكينين من الكنيسة ...

فتح له « توتوفيزبال » الباب بنفسه ، وفى الردهة الصغيرة المعتمة شاهد مينا وأمها وجدتها العمياء يشربون شيئا دافئا معطرا ومينا عاكفة على زهورها الصناعية ...

قال الاب انجيلو لرب الاسرة : اننى جئت لكى تسمحوا لمينا بالحضور والاشراف على المصائد ابتداء من الغد ، نظرا لمرض ترينيداد منذ يوم السبت ..

ابدى توتو فيزبال موافقته .. بينما قالت العجوز العمياء :

ـ المكتوب هو المكتوب ... سوف يجرى الدم فى الشوارع ، ولن توجد قوة بشرية تقدر على وقفه !..

رمقها القس بنظرة رثاء ... فقد كانت طاعنة فى السن ، شديدة شحوب الوجه ، وبدا كأن عينيها الخامدتين تنفذان الى أعماق الاشياء ... ومالبثت مينا أن ردت متهكمة : وسوف نسبح فى الدماء ! ...

ولما بقى القس واقفا قدم اليه توتو فيزبال مقعدا ودعاه الى الجلوس ، فشكره قائلا :

ـ أن موعد بدء منع التجول سوف يدركنى فى الشارع ...

وعندما فطن الى السكون المطبق فى البلدة ، اردف قائلا : يبدو أن الوقت جاوز الثامنة ...

ثم علم القس بما جد ... فبعد سنتين من خلو الزنزانات من

المتقلين ، زج بالشاب بيب امادور في السجن ، وغدت البلدة تحت رحمة ثلاثة مجرمين ... ولقد أغلق الناس البيوت على أنفسهم منذ الساعة السادسة ...

قال الاب انجيلو أخيرا : هذا غريب ... غريب أن تفلت الامور من اليد على هذه الصورة ...

فقال توتو فيزبال : كان لابد ان يحدث هذا عاجلا او آجلا .. ان البلاد كلها أصبحت اشبه ببيت العنكبوت ...

اتجه القس الى الباب ، فقال توتو فيزبال : ألم تر المنشورات السرية ؟ ...

توقف انجيلو مرتبكا ، وقال : مرة أخرى ؟ ..

فقال توتو فيزبال : عادت منذ حوالى أسبوع ... فقد جاءنا منشور هنا ، دون ان يعرف احد من جاء به ... انت تعرف طبيعته ...

أومأ الاب انجيلو ايجابا ، بينما مضى توتو فيزبال يقول : يقولون فيه أن كل شيء هو نفسه كما كان من قبل ... فقد تغيرت الحكومة ووعدوا بالامن والضمانات ، فصدقهم الناس أول الامر ... ولكن الموظفين هم نفس الموظفين ...

وتدخلت أم مينا قائلة : وهذا صحيح ... فها نحن تحت حظر التحول من جديد ، وانطلق أولئك المجرمون الثلاثة فى الشوارع ..

فقال توتو فيزبال : لكن هناك شيء جديد .. فهم يقولون الآن أنهم ينظمون جماعات كحرب العصابات ضد الحكومة فى داخلية البلاد من جديد ..

فقالت العجوز العمياء : هذا كله مكتوب ومقدر ...

وقال القس ساهما : هذا غريب ... لابد لنا أن نعترف بأن الحالة قد تغيرت فعلا ...

ثم استدرك مصححا كلامه : أو على الاقل تغيرت حتى هذه الليلة ...

وبعد ساعات ، لم يتمالك الاب انجيلو وهو راقد مستيقظا فى حرارة ناموسية البعوض ، ان تساءل ان كانت الاحوال قد تغيرت فعلا فى غضون التسعة عشر عاما التى أمضاها فى هذه الابرشية .. فعلى

بعد قليل من بيته ذاته كان يسمع جلبة الاحذية العسكرية وصـليل الاسلحة التى كانت فى أوقات شتى تسبق اطلاق البنادق ـ فيما عدا أنه فى هذه المرة كانت الاحذية تبتعد ، ثم تعود الى المرور بعـــد ساعة ، ثم لا تلبث ان تبتعد من جديد دون اطلاق اى رصاص ...

وبعد وقت لم يعرف مداه ، غلبه النوم بتأثير الاعياء والســهر ، وعرف ان الديوك كانت تصيح منذ مدة ...

الفصل التاسع

حاول ماتيو آسيز أن يعرف الوقت عن طريق مكان وصياح الديوك وفى النهاية عاد الى الواقع قائلا :

ـ كم الساعة الآن ؟..

مدت نورا جاكوب ذراعها فى العتمة وتناولت المنبه الفوسفورى القرص من فوق المنضدة الليلية ... وما أن قرأت الرقم حتى استيقظت تماما ، قائلة : الرابعة والنصف !..

ـ ياللشيطان !..

ووثب ماتيو آسيز من الفراش ... وراح يتحسس بقدميه فى الظلام موضع حذائه ... وقال :

ـ كان يمكن أن يفاجئنى ضوء النهار !...

ـ شيء لطيف اذن ! ..

قالت هذا وهى تضيء المصباح لتبدو معالم ظهره واضحة ، ثم اضافت :

ـ ... وكنت تضطر الى البقاء محبوسا هنا حتى الضحى !...

كانت متجردة تماما ، الا من طرف الملاءة ... وحتى صوتها فقد رنة الجراة والاستهتار المعهودة عندما اضيء النور ... ولما لبس ماتيو آسيز حذاءه بدا طويلا موفور القوة ... وأما نورا جاكوب التى كانت تستقبله على فترات طيلة عامين ، فكان يخامرها الاحباط لسوء الحظ الذى يجعلها تستقبل فى الخفاء رجلا بدا لها مناط الاعتزاز والزهو ...

ولم تلبث أن قالت وهى جالسة فى الفراش :

ـ سيأتى يوم أمل فيه هذا التخفى ، وأعلن للدنيا كلها علاقتنا .

ولم ينظر نحوها الا بعد أن ارتدى ملابسه ... ولما فطنت الى تجردها رفعت الملاءة حتى رقبتها ، واستطردت تقول :

ـ لم ار الوقت بوضوح ... واذن لنفطر فى الفراش ونبقى هنا حتى بعد الظهر ... بامكانى أن أعلق بنفسى قصاصة من تلك القصاصات التى يقولون انها فاحشة !...

فضحك ضحكة عريضة قائلا : اذن لمات بنيامين حسرة ... مارأيك في هذا ؟ ..

فقالت : تستطيع أن تتصور شعورى ، وأنا أنتظـــر مـــوت بنيامين ...

ورأته يلوح لها مودعا عند الباب . فقالت : حاول أن تعود ليلة عيد الميلاد ...

فوعدها ... وسار على أطراف أصابعه في الحوش وخرج الى الشارع من الباب الرئيسي ... فشعر بالطل المثلج يرطب صدره ..

وما أن وصل الى الميدان حتى صاح صوت ينادى : قف !..

وسلط ضوء بطارية على عينيه .. فحول وجهه جانبا ... واذا صوت العمده ينبعث من حيث لا يرى خلف دائرة الضوء :

ـ آه !.. هذا أنت ؟.. أقادم أم ذاهب ؟..

وأطفأ البطارية ... وراه ماتيو ، مصحوبا بثلاثة من جنود البوليس ... وبدا نضر الوجه نظيفا ، وبندقيته الرشاشة على كتفه .. فرد ماتيو اسيز قائلا : قادم ...

وتقدم العمدة لينظر الى ساعته فى ضوء مصباح الشارع .. كان ثمة عشر دقائق باقية على موعد رفع الحظر فى الخامسة ... فوجه الى رجاله أمرا برفع الحظر ، ووقف منتظرا انتهـــاء دوى النفير ، الذى كانت له رنة محزونة فى هذا الفجر ... وبعدئذ صرف جنود البوليس ورافق ماتيو آسيز الى الميدان ... وقال له :

ـ انتهينا اخيرا من مشكلة الملصقات ...

كانت نبراته التى شفت عن الارتياح تنم عن الاعياء ، فقـــال ماتيو :

ـ هل قبضوا على الشخص الذى كان يضعها ؟ ...

فأجاب العمدة : ليس بعد ... لكننى انتهيت لتوى من القيـــام بالجولات الاخيرة ، ويمكننى أن أؤكد لك اليوم ، للمرة الاولى ، أن قصاصة واحدة لن ترى نور الفجر ... كانت المسألة محتاجة فقط الى تشديد الحزام حول بنطلوناتهم !..

وعند وصولهما الى الباب الرئيسى لبيت الاسرة ، سبق ماتيو آسيز لربط الكلاب ... وكانت الخادمات قد بدأن الحركة فى المطبخ ... وعندما دخل العمدة تلقته الكلاب المقيدة فى سلاسلها بعاصـــفة

نباح عاتية ... ووجدتهما الارملة آسيز بعد ذلك يشربان القهوة فوق الدكة الحجرية فى المطبخ وقد انتشر الضوء من حولهما .. فقالت الارملة :

ـ رجل يستيقظ قبل الطيور ... رفيق طيب ، لكنه زوج ردىء ...

وعلى الرغم من تبسط الارملة فقد شفت ملامح وجهها عن ضنى السهر والسهد ... وقد رد العمدة على تحيتها ، ومالبث أن رفع البندقية الرشاشة من الارض وعلقها على كتفه ، فقالت الارملة :

ـ اشرب ماشئت من القهوة أيها الملازم ، لكن لا تحضر أية بنادق الى بيتى ...

فقال ماتيو آسيز باسما : بالعكس ... يجب أن تستعيريها منه للذهاب بها الى القداس ... ألا ترين هذا ؟..

فردت أمه قائلة : لست بحاجة الى « كركوبة » كهذه للدفاع عن نفسى فى الطريق ... ان العناية الالهية معنا .. ان آل آسيز كانوا على الدوام من اهل الايمان والتقوى ...

ولم يلبث العمدة ان استأذن قائلا : لابد لى من النوم .. ليست هذه حياة بشر !..

وشق طريقه بين الدجاج والبط والديوك الرومية التى بدات تجتاح البيت ... فأخذت الارملة آسيز تهشها الى الخارج ، بينما ذهب ماتيو آسيز الى غرفته ، ثم استحم ، وغير ملابسه ، وخرج ثانية لاسراج بغله ، بعد أن سبقه أخوته الى الغابة عند الفجر ...

وكانت الارملة آسيز تشرف على أقفاص الطيور عندما لاح ابنها فى الحوش ... فقالت له :

ـ تذكر ... هناك فرق بين ان تحافظ على سلامتك وبين أن تتقرب ممن لاينبغى أن تتقرب منه ...

فقال ماتيو آسيز : أنه جاء يشرب قدح قهوة ... وسرنا معا نتكلم حتى وصلنا الى هنا دون ان ندرى تقريبا ...

كان عندئذ قرب نهاية المدخل ، متجها بنظره الى امه ، بيد أنها لم تستدر نحوه وهى تتكلم ، وبدا كأنها تخاطب الطيور وهى تقول :

ـ سأقول لك هذا فقط ... لا اريد ان يأتى الى بيتى أناس من القتلة السفاحين ...

وبعد أن فرغت من الاقفاص تماما ، اقبلت على ابنهـا بكليتها ، قائلة :

ـ وأنت ... أين كنت ؟!..

***

بدا للقاضي أركاديو هذا الصباح أنه اكتشف نذرا مشئومة فى الحلقات الدقيقة المتعاقبة التى تؤلف الحياة اليومية ... وما لبث أن قال لزوجتـه معربا عن هواجسه وقلقـه : ان مجرد التفكير فى احوالنا يجلب الصداع ...

كان صباحا مشمسا ... ولاول مرة منذ اسابيع متعددة فقـد النهر صورته التهديدية المنذرة بالخطر ورائحته الشبيهة برائحـة اللحم النيىء ...

وذهب القاضى أركاديو الى دكان الحلاق ، فتلقاه هذا قائلا :

ـ العدالة تمشى عرجاء ، لكنها تبلغ هدفها رغم ذلك ..

وكان الحلاق يمسح المرايا عندما جلس القاضى فى الكرسى لحلق شعره .. وبعد أن اغمض عينيه فترة قال فى ضيق :

ـ ان السكون فى هذه البلدة يجعلها مثل مدينة أشباح ..

فقال الحلاق : أنتم ياناس أردتموها هكذا ... أيام زمان ، فى صباح يوم اثنين كهذا ، كنت أحلق خمسة رءوس على الاقل وقتها . اما هذا الصباح فان هدية المنعم لى هى أنت فقط ...

وتردد الحلاق برهة قبل أن يضيف :

ـ من قبلكم أيها الناس ، كانت هذه بلدة طيبة ، مثل كل البلاد ، اما الآن فهى أسوأها جميعا ...

فرد القاضى قائلا : أن كنت تقول هذا ، فلانك تعرف انه لا ضلع لى معهم ...

ثم أردف دون رغبة فى العدوان : هل تجسر أن تقول مثـل هذا الكلام للملازم ؟ ...

أعترف الحلاق بأنه ماكان ليجسر ، وقال :

ـ انت لا تعرف ماذا يكون الحال ، عندما تستيقظ صباح كل يوم متأكدا أنهم سيقتلونك ، ثم تمضى عشر سنوات ولا يقتلونك ..

فقال القاضى أركاديو : لا أعرف .. ولا أريد أن أعرف ..

وأمال القاضى رأسه ... وبعد صمت طويل انشأ يقول :

ـ هل تعرف شيئا يا « جواردبولا » ؟ ... ان اللازم يغرق فى الاعماق كل يوم فى هذه البلدة ... وهو يزيد غرقا بمضى الوقت بعد ان اكتشف متعة لا رجعة له عنها : فشيئا فشيئا ، ودون ما ضجة ، أصبح يفتنى ويزيد غنى ... واراهنك انه لن يكون مسئولا عن مزيد من القتل وسفك الدماء بعد الآن ...

ـ هل تظن هذا ؟..

فقال القاضى باصرار : اراهنك على مائة بيزو مقابل واحد .... فى هذه اللحظة ليس هناك ماهو افضل واربح له من السلم ...

فرغ الحلاق من قص الشعر ، وامال الكرسى الى الوراء ، وقلب « الفوطة » دون كلام ، وعندما تكلم اخيرا ، شابت لهجته رنة قلق ، اذ قال :

ـ غريب ان تكون انت الذى يقول هذا الكلام ، وان تقوله لى ...

فقال القاضى اركاديو : لست هى المرة الاولى التى قلته فيها ..

فقال الحلاق : ان اللازم صديقك الحميم ...

فقال القاضى اركاديو برصانة : قل لى شيئا واحدا ياجواردبولا .. ماهو انطباعك عنى ؟..

بدا جواردبولا يحلق ذقن القاضى ... وقد فكر برهة قبل أن يجيب قائلا :

ـ حتى الآن ، يمكننى ان ارى انك رجل يعرف انه راحل ، وانه يريد ان يرحل ...

فقال القاضى باسما : بامكانك ان تستمر فى هذا التفكير ..

واغمض القاضى عينيه مستسلما للحلاق ... وبعد أن فرغ هذا دس قصاصة ورق فى جيب قميص القاضى ، وقال له :

ـ انت مخطىء فى شىء واحد فقط ياحضرة القاضى ... سوف تقع احداث جسام فى هذه البلاد ...

تحقق القاضى انهما لايزالان وحدهما فى الدكان ... بل بدا له من استتباب السكون فى هذه الفترة الصباحية التى لم تجاوز التاسعة والنصف ، وكانهما فى البلدة وحدهما .. ومالبث ان اخرج القصاصة من جيبه وقراها ...

اما الحلاق فقد أدار ظهره اليه وعكف على ترتيب الرف ، وقال مقتبسا عبارات من القصاصة : « سنتان من الخطب ، ومع ذلك لا تزال حالة الطوارىء هى نفسها ، والرقابة على الصحافة هى نفسها ، والموظفون القدامى هم انفسهم » ...

ولما رأى فى المرآة أن القاضى اركاديو توقف عن القراءة ، قال له :
ـ مررها على من حولك ...
فأعاد القاضى القصاصة الى جيبه قائلا :
ـ أنت شجاع جدا ...
فقال الحلاق : لو اننى كنت اخطىء فى معرفة الناس على حقيقتهم لامتلأ جسمى بالرصاص منذ سنوات .. ثم اضاف قائلا ..
ـ وتذكر شيئا واحدا ياحضرة القاضى .. لن يكون فى قدرة أحد ان « يوقفها » هذه المرة ...
وعندما خرج القاضى اركاديو من دكان الحلاق شعر بجفاف شديد فى حلقه ، فعرج على البار ، وطلب كأسين شربهما متعاقبين ... ثم كرر الطلب ... وعند الكأس الرابعة قال له دون روك باسما :
ـ بهذا المعدل سوف يحملونك على الاكتاف ، مثل مصارع ثيران !
فابتسم القاضى بدوره ، بيد أن عينيه ظلتا خامدتين ... وبعد نصف ساعة ذهب الى دورة المياه حيث تبول ، وقبل أن يخرج القى المنشور السرى فى المرحاض وجذب « السيفون » ...

***

عندما كان دون ساباس يجهز افطار الطيور قيل له ان مستر كارميكل جاء لزيارته ، فهمس فى اذن زوجته :
ـ قولوا له اننى نائم ...
وفعلا لم تمض عشر دقائق حتى كان مستغرقا فى النوم ... وعندما استيقظ ، عاد الجفاف الى الهواء من جديد ، وغدا البيت مثقلا بالحر ... وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة ...
وانتظرت زوجته حتى استيقظ ... فوضعت الحقنة فى الماء المغلى وتولى دون ساباس حقن نفسه بالانسولين فى فخذه ...
وتمدد ثانية فى الفراش ... وبعد نصف ساعة نهض متمهلا وبدأ يرتدي ملابسه ، ثم سأل زوجته :
ـ ماذا قال كارميكل ؟..
ـ قال انه سيعود فيما بعد ...
ولم يتبادلا الحديث الا بعد ان جلسا الى المائدة ، فقالت له :
ـ ماالذى يريده كارميكل ؟..
لم يرفع دون ساباس رأسه عن الطبق ، واجاب : النقود ... وماذا غيرها ؟ ...

فتنهدت المراة وقالت : هذا ماخطر لى ... مسكين كارميكل ... انهار من النقود تجرى بين يديه منذ سنوات بعيدة ، ويعيش على الصدقات ! ..

ثم اردفت مستعطفة : اعطه مايريد ياساباس ... وسيجزيك الله ... كم يريد ؟..

ـ مائتا بيزو ...

ـ مائتا بيزو ؟ ..

ـ تصورى !..

كان من عادة دون ساباس أن يخلد الى الراحة فى مثـــل يوم الاثنين هذا ، بعكس يوم الاحد الذى كان انشط ايامه عملا ، فيجلس فى اغفاءة مستروحا هواء المروحة الكهربائية ، فى حين تسمن قطعان مواشيه وتتكاثر فى مزارعه لتربية المواشى .. بيد انه فى عصر يوم الاثنين هذا لم يستطع أن يجد الراحة التى كان ينشدها ، وفى هذا قالت زوجته :

ـ انه الحر ...

فرد عليها قائلا : ربما ... لم يحدث مثل هذا الحر من قبل فى اكتوبر ...

فقالت الزوجة : منذ خمسة عشر عاما ، عندما جاء حر مثل هذا حدث زلزال ... هل تتذكر ؟..

فاجاب دون ساباس ساهما : لا اتذكر ... انت تعرفين اننى لااتذكر اى شىء ... وفضلا عن هذا فلست فى حالة نفسية تسمح لى بأن اتكلم عن المصائب ، فى هذه الساعات ...

فتركته وغادرت المكتب بسكون ... وبعدها اخذته سنة مـــن النوم ...

وعندما فتح عينيه ، تجسد امامه شخص العمدة ، كأنمــا كان امتدادا لحلم طويل .. وكان ينتظره حتى يستيقظ ... وقد قال له باسما :

ـ ان رجلا مثلك ، لا يجب ان ينام وبابه مفتوح ..

لم يبدا دون ساباس اية بادرة تنم عن انزعاج ، وقال :

ـ لك انت ، ابواب بيتى مفتوحة دائما ...

ومد يده لكى يدق الجرس ... ولكن العمدة استوقفه باشارة .. فقال دون ساباس : الا تريد بعض القهوة ؟..

فأجاب العمدة وهو يدير نظره فى الغرفة بنظرة اشتياق :
ـ ليس الآن مباشرة ... كان الوجود هنا مريحا اثناء نومك ... كان كما لو كان فى بلدة مختلفة ...
فجعل دون ساباس يفرك عينيه بظهر أصابعه ، قائلا :
ـ كم الساعة الآن ؟..
نظر العمدة الى ساعته ، واجاب : تقرب من الخامسة ...
وعلى الاثر غير جلسته فى المقعد ، وطرق الموضوع الذى جاء لاجله قائلا بنعومة ؟
ـ هل يمكننا ان نتكلم اذن ؟..
فأجاب دون ساباس : اظن اننى غير مخير ...
فراح العمدة يقول : على كل حال فليس ماسأقوله سرا على احد ... قل لى شيئا واحدا يادون ساباس .. كم راسا من المواشى المملوكة للأرملة مونتيل استبعدتها ووشمتها بعلامتك الخاصة منذ أن عرضت ان تبيع لك ؟ ..
هز دون ساباس كتفيه قائلا :
ـ ليس عندى اقل فكرة ...
فقال العمدة : انت تعرف ان شيئا كهذا له اسم معروف ...
فكان دون ساباس دقيقا فى الوصف ، اذ أجاب : تهرب ...
فأيده العمدة قائلا دون ان يغير نعومة لهجته :
ـ بالضبط .. فلنقل ، على سبيل المثال ، انك استبعدت مائتى راس فى ثلاثة أيام ...
فقال دون ساباس : ياليتها كانت كذلك ...
فقال العمدة : فلنقل مائتى راس .. انت تعرف ماهى اللوائح .. خمسون بيزو عن الراس ضريبة بلدية ...
ـ أربعون ...
ـ خمسون ...
ابدى دون ساباس اشارة تنم عن الاذعان ... وكان مستندا بظهره الى المقعد الدوار وهو يدير الخاتم المرصع بالحجر الاسود المصقول حول اصبعه ، مركزا عينيه على رقعة شطرنج وهمية ...
وكان العمدة يراقبه باهتمام مجرد من كل رحمة ، ومالبث أن استطرد قائلا :

ـ على أننا فى هذه المرة لن نترك الامور تتوقف عند هذا الحد .. فانه منذ هذه اللحظة فصاعدا ، اصبحت كافة المواشى المملوكة لتركة جوزيه مونتيل ، حينما يكون مكانها ، تحت حراسة حكومة البلدة ..

وعندما انتظر دون جدوى اى رد فعل ، تولى البيان قائلا :

ـ ان تلك المراة المسكينة ، كما تعرف ، جنت تماما ...

ـ وماذا عن كارميكل ؟..

فأجاب العمدة : كارميكل معتقل منذ ساعتين ...

جعل دون ساباس يتفرس فيه عندئذ بنظرات قد تنم عن الولاء أو التبلد ... ثم ، دون أدنى نذير ، تفجر كيانه الضخم فوق المكتب بضحكة عنيفة لا ممسك لها ، وقال :

ـ يالها من معجزة ياحضرة الملازم !.. لا بل ان هذا كله يبدو فى نظرك مثل حلم ! ..

كان الاب انجيلو عائدا من جولته بعد الظهر عندما شاهد الدكتور جيرالدو يحاول أن يضع المفتاح فى قفل باب مكتبه ، فقال له باسما :

ـ أرايت يادكتور ؟.. حتى لكى تفتح بابا ، فانك محتاج الى عون الله ...

فرد عليه الطبيب باسما بدوره : أو الى نور بطارية ...

وأدار المفتاح فى القفل ثم وجه كل اهتمامه الى الاب انجيلو قائلا :

ـ مهلا يا أبى ... لا أظن أن كبدك يعمل كما ينبغى ...

ـ لا أظنك ترى هذا ؟...

بيد أن الطبيب قاده الى مكتبه واضاء النور قائلا : ليس كثيرا يا أبى أن تكرس خمس دقائق لبدنك .. دعنا نفحص ضغطك ..

كان الاب انجيلو فى عجلة ، بيد أنه رضخ تحت الحاح الطبيب ..

ولم يفصح وجه الطبيب عن شىء بعد أن أتم قياس ضغط الدم ..

وفى هذه الاثناء كان الاب انجيلو يدير نظره فى أرجاء الحجرة متفحصا مابها من رسوم وأدوات طبية ، وقد غمغم قائلا :

ـ أنت محتاج الى صورة قديس أيضا فى هذه الحجرة ...

فقال الطبيب وهو ينظر الى الصورة المعلقة على الجدران :

ـ ليس هنا بالضبط ... الحاجة الى صورة القديس مطلوبة فى كل مكان بالبلدة ...

وبعد أن أعاد الطبيب جهاز قياس الضغط الى مكانه قال :

ـ لابد أن تعرف شيئا يا أبى ... فان ضغط دمك جيد جدا ..

فقال الاب انجيلو : هذا ما كنت أتصوره ... اننى لم أحس بأننى على مايرام كاحساسى بهذا فى شهر أكتوبر ...

فرد عليه الطبيب قائلا : ومع ذلك فاننى قلق عليك ...

لابد أن تعترف بأن واجباتك اليومية ليست هى الشيء الامثل بالنسبة لشهر أكتوبر كهذا ...

فقال القس : ان العمل بالاوامر الالهية ملزم .

فأدار الطبيب ظهره اليه لكى يتطلع من خلال النافذة الى النهر القاتم ، ومالبث أن قال :

ـ لايبدو أنه من التكاليف الدينية تلك المساعى الجاهدة وعلى طول السنين لتغطية غريزة الناس بالدروع ، مع تمام العلم بأنه تحت هذا السطح يجرى كل شيء مجراه ...

وبعد فترة توقف طويلة تساءل الطبيب :

ـ ألم يتهيأ عندك الانطباع بأنه فى خلال الايام القليلة الماضية ، أصبح عمل العمدة الذى داب عليه بكل قسوة وبلا أدنى رحمة قد بدأ يتفسخ ويتهاوى ؟ ..

فأجاب الاب انجيلو : ان هذا الانطباع كان عندى كل ليلة على مدار حياتى ... وهذا مايجعلنى ابدأ كل يوم بقوة مجددة ..

ونهض قائما وقد رأى الساعة تقترب من السادسة وهو يشعر بضيق شديد ، وفى النهاية استأذن منصرفا وأغلق الباب خلفه برفق ...

ولم يستطع الاب انجيلو أن يركز فى صلواته ... وعندما كان يغلق الكنيسة جاءته مينا وأخبرته أن فأرا واحدا فقط هو الذى وقع فى المصيدة فى خلال يومين ... فكان الانطباع عنده هو أنه بغياب ترينيداد قد تكاثرت الفئران الى الحد الذى أصبح يهدد بتقويض المبنى ... ومع ذلك فان مينا كانت قد نصبت المصائد ، ووضعت سما فى الجبن ، وجعلت تتتبع أثر الفئران الصغيرة ، وسدت الجحور الجديدة التى ساعدها هو بنفسه فى اكتشافها بالقار ...

قال لها فى النهاية : ضعى شيئا من الايمان فى عملك ، وسوف تأتى الفئران الى المصائد كالحملان ...

وذهب يتقلب مرارا فوق المرتبة العارية محاولا النوم ... وفى الوهن الذى ران عليه فى هذه اليقظة برز له بجلاء ذلك الاحساس بالاحباط الذى نوه عنه الطبيب فى حواره معه ... كانت علائمه فى ذلك القلق الجاثم فى كل مكان ، ثم هجمة الفئران فى الكنيسة ، ثم حالة الشلل المروعة المترتبة على اعلان حظر التجول - كل هذه العلائم قد تآزرت وتآمرت عليه ، حتى لكأن قوة عمياء جذبته فى دوامة لكى تبتعث من قرارتها أرهب ذكرى فى حياته : فعند وصوله الى البلدة لاول مرة ، أيقظوه فى منتصف الليل لمباشرة الطقوس الدينية الاخيرة لنورا جاكوب ... وفى غرفة أعدت لاستقبال الموت ، تلقى اعترافا مروعا ، فاهت به فى هدوء ، وتفصيل دقيق ... فقد كشفت له المرأة المحتضرة أن زوجها ، نستور جاكوب لم يكن والد الابنة التى ولدت توا ... فاشترط الاب انجيلو ألا يتم الاحلال من الخطيئة الا بعد تكرار الاعتراف والاقرار بالندم والتوبة فى حضور زوجها ...

الفصل العاشر

طوى عمال السيرك قلوعهم وجمعوا أدواتهم . وما أن حل الفجر حتى كانت النساء والصغار من أسرة السيرك يتناولون الافطار بين الحقائب الكبيرة المحزومة ، بينما انهمك الرجل فى نقل الحيوانات المفترسة الى ظهر الزوارق الكبيرة ... وعندما اطلقت الزوارق صفيرها الاول ، كانت بقايا النيران المشبوبة فوق الارض التى كانت ساحة السيرك هى الاثر الوحيد الذى يشهد بأن وحوشا قد مرت بهذه البلدة ...

وكان العمدة لم ينم ليلته ، وبعد أن راقب تحميل أنقاض السيرك من الشرفة ، خرج يختلط بالناس فى زحام الميناء وما زال بكسوة الميدان ، وعيناه متأثرتان من قلة النوم ، ووجهه متصلب بسبب احية عمرها يومان ...

وعندما أبصره رئيس السيرك من ظهر الزورق ، صاح نحوه :

ـ هالو ياحضرة الملازم !.. اننى تارك لك مملكتك !..

فاقترب العمدة من حافة الرصيف ، وصاح بدوره فى مودة فاتحا ذراعيه :

ـ أنا آسف ياجنرال !... املى أن تكون امينا وتخبرهم بسبب رحيل السيرك ...

واستدار العمدة الى الجمهور وشرح لهم بصوت عال :

ـ اننى ألغيت الترخيص الممنوح له لانه رفض اقامة حفلة مجانية للأطفال ! ...

وغطت الصفارة الاخيرة للزوارق وضجيج المحركات رد رئيس السيرك ... فانتظر الرجل حتى اتمت الزوارق دوراتها فى وسط النهر ، وعندئذ مال فوق الحاجز وصاح بأعلى صوته مستعينا بيديه كميكروفون :

ـ الوداع يابن ... !

لم يتأثر العمدة ، وانتظر ويداه فى جيوبه الى أن تلاشى صوت المحركات ، وبعدها سلك طريقه بين الجمهور وهو يبتسم ، ودخل الى دكان التاجر الشرقى ...

كانت الساعة تناهز الثامنة ، وكان التاجر قد بدا يجمع ســـلعه المعروفة قرب الباب ، فقال له العمدة :

ـ انت أيضا راحل اذن ؟ ..

فقال التاجر وهو ينظر الى السماء : بعد فترة قصيرة ... سينزل المطر ...

فرد عليه العمدة قائلا : ان المطر لاينزل أيام الاربعاء ...

وأسند مرفقيه الى المنصة ووقف يراقب السحب الكثيفة التى كانت تمر فوق الميناء الى أن أتم التاجر رفع سلعه وطلب من زوجته أن تعد القهوة ... ومالبث العمدة أن تنهد قائلا :

ـ بهذا المعدل سوف نضطر الى « استعارة » الناس من البلدان الاخرى ..

وأخذ يشرب القهوة متمهلا ... وقال له التاجر ان ثلاث عائلات اخرى قد رحلت عن البلدة ، وحسب تقديره يكون مجموع العـــائلات الراحله خمسا فى اسبوع واحد ... فقال العمدة :

ـ سوف يعودون عاجلا أو آجلا ...

واخذ يتفرس فى العلامات المبهمة المتخلفة فى قاع قدح القهوة وهو ساهم ، واخيرا اضاف :

ـ اينما ارتحلوا وذهبوا ، فسوف يتذكرون ان حبلهـم السرى مدفون فى هذه البلدة ...

وعلى الرغم من تنبؤاته عن حالة الطقس ، فقد اضطر الى البقاء فى المتجر بعد أن مرت سحابة غزيرة المطر اغرقت البلدة فى طـوفان مدى دقائق ... وبعدها قصد الى ثكنات البوليس حيث وجد مستر كارميكل مايزال جالسا فى مقعد صغير بلا ظهر فى وسط الحوش وقد أغرقه وابل المطر ...

لكنه لم يهتم به ... وبعد أن تلقى تقريرا من جندى البوليس المكلف بالحراسة ، امر بفتح الزنزانة التى بدا ان الفتى بيب امادور نائم فيها ووجهه على الارض الحجرية ... فأداره بقدمه ، ولاحظ فى رثاء خفى وجهه الذى شوهه الضرب المتواصل ...

ثم سأل : منذ متى اكل ؟ ..

ـ منذ الليلة قبل الفائتة ...

فأمرهم برفعه ... فتولى ثلاثة جنود جر الجسد من تحت الابط فى الزنزانة واجلسوه على الافريز الاسمنتى البارز من الحـــائط

بارتفاع قدمين ... وشوهد فى الموضع الذى كان فيه الجسد ظل ممدود ...

وبينما أمسك به اثنان منهم فى وضع جلوس ، أسند ثالثهم راسه بجذب الشعر .. وكان يخيل للرائى انه فى عداد الاموات ، لولا تنفسه غير المنتظم ، وعلائم الاعياء البالغ على شفتيه ...

ولم يلبث بيب أمادور بعد أن تخلى عنه رجال البوليس أن فتح عينيه ، وتشبث بحافة افريز الاسمنت باللمس ... وعلى الاثر رقد على الافريز بتأوه أجش ...

وترك العمدة الزنزانة بعد أن أمرهم باعطائه شيئا يأكله وتركه ينام فترة ، ثم أضاف قائلا :

ـ وبعد ذلك واساوا عملكم معه الى أن « يطفح » بكل مايعرفه .. ولا أظن أنه سيقوى على المقاومة طويلا ...

ومن الشرفة أبصر مستر كارميكل فى الحوش ممسكا وجهه بين يديه ومكوما على نفسه فوق المقعد الصغير ... فقال :

ـ روفيرا ... اذهب الى بيت كارميكل وقل لزوجته ان ترسل له بعض الملابس ...

ثم أضاف بلهجة صارمة : وهاتوه الى المكتب ...

وبدأ العمدة يغلبه النوم وهو مستند فوق المكتب ، عندما طرقوا عليه الباب ... لقد جيء بمستر كارميكل مرتديا بذلة بيضاء وقد جف تماما ، باستثناء حذائه الذى كان منتفخا كحذاء رجل غريق .. وقبل أن يتفرغ له العمدة أمر جندى البوليس أن يحضر له حذاء .. فرفع مستر كارميكل ذراعه للرجل قائلا :

ـ أنا على مايرام هكذا ...

ثم التفت الى العمدة بنظرة اعتزاز بالنفس قائلا :

ـ هذا هو الحذاء الوحيد الذى أمتلكه ...

طلب منه العمدة أن يجلس ... وقبل ذلك بأربع وعشرين ساعة اقتيد مستر كارميكل الى المكتب المصفح وجرى اخضاعه الى استجواب مكثف عن الموقف الخاص بتركة مونتيل ... فأعطى تقريرا مفصلا .. وفى النهاية ، عندما كشف العمدة عن اقتراحه لشراء التركة بثمن يحدده خبراء البلدية ، اعلن كارميكل عن تصميمه الباقى بألا يسمح بهذا الى أن يتم التصديق على الوصية وتوثيقها رسميا ...

وبعد ظهر هذا اليوم ، وبعد يومين من الجوع والتعرض لقسوة

الطبيعة ، كشف جوابه عن ذات التصميم البات الذى لا هــوادة فيه ...

قال له العمدة : انت بغل يا كارميكل .. اذا انتظرت الى أن يتم توثيق الوصية ، فان ذلك اللص دون ساباس سيكون قد وشم علامته على مواشى مونتيل كلها ...

فما كان من مستر كارميكل الا أن هز كتفيه ... فقال العمــدة بعد توقف طويل :

ـ لا بأس ... كلنا نعرف انك رجل نزيه ... لكن تذكر شيئـا واحدا ... فمند خمس سنوات أعطى دون ساباس لجوزيه مونتيل كشفا كاملا بأسماء الاشخاص المتصلين بجماعات حرب العصابات .. وهذا هو السبب فى أنه كان الزعيم الوحيد من زعماء المعارضة الذى أمكنه ان يبقى فى البلدة ...

فقال مستر كارميكل بشىء من التهكم : هناك شخص آخر بقى . هو طبيب الاسنان .

تجاهل العمدة هذه المقاطعة ، واستمر يقول :

ـ هل تظن أن رجلا ، استطاع أن يبيع قومه ، سوف يهتم اذا جاست أربعا وعشرين ساعة فى المطر أو الصحو ؟..

أطرق مستر كارميكل برأسه وجعل ينظر الى أظافره ، بينما جلس العمدة فوق المكتب : وقال فى النهاية بصوت لين :

ـ بالاضافة الى هذا ، فكر فى أطفالك ...

لم يعرف مستر كارميكل ان زوجته وولديه الاكبر سنا قد زاروا العمدة فى الليلة الماضية وأنه وعدهم باطلاق سراحه فى خلال أربــع وعشرين ساعة ...

فقال مستر كارميكل : لا تشغل بالك ... انهم يعــرفون كيف يهتمون بأنفسهم :

ولم يرفع رأسه حتى سمع العمدة يذرع المكتب من أقصــاه الى اقصاه جيئة وذهابا .. فتنهد وقال له :

ـ لا تزال امامك طريقة أخرى ياحضرة الملازم ...

وقبل أن يواصل كلامه ، تطلع الى العمدة بوداعة تامة ، قائلا :

ـ اضربنى بالرصاص ...

لم يتلق أى رد ... وبعد برهة كان العمدة فى غرفته مستغرقا فى نوم عميق ، وأعيد مستر كارميكل الى المقعد الصغير الذى بلا ظهر فى عراء الحوش ...

على بعد مربعين سكنيين من الثكنات ، كان سكرتير المحكمة فى منتهى السعادة ... فقد أمضى الصباح ناعسا فى خلفية المكتب ، وفجأة ، ودون أن يستطيع تحاشي النظر ، وقع نظره على صدر ربيكا آسيز وهي خارجة من الحمام ... كانت الصورة مثل ومضة برق وقت الظهر ... ففجأة فتح باب الحمام ، وأسرعت المرأة الفاتنة التى لم يكن يكسوها أكثر من منشفة حول راسها ، تغلق النافذة وقد ندت منها صرخة مكتومة ...

لقد أمضى السكرتير نصف ساعة وهو يقاسي مرارة هذا الخيال فى المكتب الحسير الضوء ... وحوالى الساعة الثانية عشرة وضع القفل على باب المكتب والذكرى تنهنهه ...

وعند مروره بمكتب التلغراف أشار اليه وكيل المكتب وقال له :

ـ سيكون عندنا قسيس جديد ... فقد كتبت الارملة آسيز رسالة فى هذا الى رئيس كنائس المنطقة ...

فلوح له السكرتير مستنكرا وقال : ان أعظم فضيلة فى الانسان هى ان يعرف كيف يكتم السر ..

وعند ناصية الميدان التقى بمستر بنيامين البقال الذى كان يفكر مرتين قبل الاقدام على عبور برك المياه امام دكان .. فقال له السكرتير :

ـ ياليتك تعرف يامستر بنيامين !..

فقال بنيامين : ماذا ؟..

فرد السكرتير : لاشىء ... سوف أحمل معى هذا السر الى القبر ... هز بنيامين كتفيه ... وراقب السكرتير وهو يقفز فوق البرك بخفة الشباب ، الى حد انه ألقى بنفسه فى هذه المغامرة وحذا حذوه ...

وفى فترة غيابه جاء شخص ما ووضع له « عمود » الطعام فى خلفية الدكان ... فتناول الغداء متمهلا ... وبينما كان يستعد لنصب أرجوحة النوم سمع صوت طارق دخل الى الدكان .. وجاءه صوت يغلب عليه النوم يقول : هل مستر بنيامين موجود ؟..

فمد رقبته ونظر ... فرأى امراة مرتدية ثوبا أسود وشعرها ملفوف فى منشفة ... كانت أم بيب امادور ...

قال لها بنيامين : أنا غير موجود .

فقالت المراة : بل هو انت ..

فقال لها : انا عارف .. لكن كأنني غير موجود ، لاني اعرف لماذا تبحثين عني ...

وقفت المراة مترددة لدى الباب الخلفي الصغير ، بينما كان بنيامين يكمل نصب الارجوحة ... ومع كل نفس تردده المرأة كان ينبعث صفير خافت من رئتيها ...

قال لها بنيامين بغلظة : لا تقفى هناك ... اذهبى ، أو ادخلى ..

احتلت المراة المقعد المجاور للمائدة وأخذت تنتحب فى صمت ، فقال لها :

ـ معذرة ... كان يجب أن تعرفى انك تورطينني بوقوفك هكذا أمام أنظار الجميع ..

كشفت ام بيب امادور عن راسها وجففت دموعها بالمنشفة ... وبعد أن تأكد مستر بنيامين من متانة الحبال التى تشد الارجوحة ، التفت الى المراة ، قائلا :

ـ أنت اذن تريدينى أن أحرر لك عريضة استرحام قضائية ..

فأومأت المراة ايجابا ... فاستطرد قائلا :

ـ لا بأس ... استمرى فى اعتقادك فى عرائض الاسترحام ...

ثم خفض صوته وأضاف يقول : فى هذه الايام لا تتوقف العدالة على عرائض الاسترحام ، بل تتوقف على رصاص البنادق !..

فقالت المراة : كل الناس يقولون هذا الكلام .. لكن الواقع هو انني الام الوحيدة التى زج بابنها فى السجن..

وأثناء كلامها أخذت تفك عقد المنديل الذى كان فى يدها حتى هذه الآونة ، واخرجت منه بضع أوراق بنكنوت منداة بالعرق ، كانت فى مجموعها ثمانية بيزتات .. وقد قدمت اليه المبلغ قائلة :

ـ هذا كل ما أملكه ...

نظر مستر بنيامين الى النقود ... وما لبث أن هز كتفيه وتناولها ووضعها فوق المائدة ، قائلا :

ـ أنا عارف انه لا فائدة ... لكننى سألبى طلبك لكى اثبت أمام الله اننى رجل لا ييأس من رحمته ...

فشكرته المراة صامتة ، وعادت الى بكائها المخفت ...

وقال بنيامين ينصحها : على أى حال حاولى أن تطلبى من العمدة أن يسمح لك بمقابلة ابنك واقناعه بأن يقول مايعرفه ... بغير هذا تكون كمن يلقى العرائض للخنازير ...

ومسحت المراة أنفها بالمنشفة ، وغطت رأسها ثانية . ثم انصرفت دون أن تدير رأسها ...

واما مستر بنيامين فقد نام فترة قيلولته حتى الساعة الرابعة ... وعندما خرج الى الحوش لكى يغتسل ، كان الطقس قد تكشف وامتلأ الهواء بالنمل الطائر ... وبعد أن غير ملابسه ومشط الشعرات القليلة الباقية فى راسه ، خرج قاصدا الى مكتب التلغراف والبريد لشراء عريضة مدموغة ...

وفى عودته الى الدكان لكتابة عريضة الاسترحام شاهد مادله على ان شيئا قد حدث فى البلدة ... فقد سمع صياحا بعيدا .. وعندما سأل نفرا من الصبية كانوا يجرون عن كثب ماذا جرى ؟ ردوا عليه دون أن يتوقفوا ... وعندئذ رجع بنيامين الى مكتب البريد وأعاد العريضة المدموغة قائلا :

ـ نست فى حاجة اليها الآن ... انهم قتلوا بيب امادور ...

***

راح العمدة وهو نصف نائم يهبط السلالم وثبا من غرفة نومه حاملا حزامه بيده ومزودا كسوته العسكرية باليد الاخرى ... وقد فهم قبل أن يعرف ماذا حدث انه لابد أن يذهب الى الثكنات من فوره ...

وفى طريقه كانت النوافذ تغلق فى وجهه وهو يمر ... وشوهدت امراة مفتوحة الذراعين وهى تجرى فى الاتجـــاه المضاد ... وكان النمل الطائر يملأ الهواء ... ومالبث أن أخرج المسدس من حامله واخذ يجرى حتى قبل أن يعرف ماحدث ...

كانت جماعة من الفساد تحاول اقتحام باب الثكنات ... ووقف بضعة رجال يكافحون لمنعهن من المحـــاولة ... فأبعـــدهن العمـــدة ضربا ، ووقف وظهره الى الباب ، وصوب مسدسه الى الجميـــع قائلا :

ـ سأطلق النار على اى شخص يخطو خطوة واحدة !..

وعندئذ فتح الباب جندى وكان ممسكا به من الداخل ، شـــاهرا بندقيته ، وأطلق صـــفارته .. وعلى الاثر جرى جنديان آخران فى الشرفة وأطلقا عدة اعيرة نارية فى الهواء ، فتفرق الجمـــع الى اطراف الشارع .. وفى هذه اللحظة ظهرت المراة لدى الناصية وهى تعوى مثل كلب ، فعرف منبا العمدة أم بيب امادور ... وبوثبة كان داخل الثكنات ، ومن السلالم أمر الجندى قائلا :

ـ تول امر هذه المرأة ..

وفى الداخل كان السكون تاما ... ولم يكتشف العمدة حقيقة ماحدث الا بعد أن أزاح جانبا جنود البوليس الذين كانوا يسدون مدخل الزنزانة ووقع نظره على بيب أمادور ... كان ممددا على الارض ، مكوما على نفسه ، ويداه بين فخذيه ... وبدا شاحبا ، لكن لم تكن به آثار دماء ....

وبعد أن أقنع العمدة نفسه بعدم وجود جرح فى الجثة . مدد ساحبها على ظهره ، وسوى قميصه ، وشد حزامه ...

وعندما استقام فى وقفته تماثل الى الهدوء ، بيد أن الصورة التى واجه بها رجال البوليس شفت عن بوادر اعياء ... وقال : من فعل هذا ؟ ...

فرد الجندى المارد الاشقر : كلنا ... انه حاول الهروب ...

راح العمدة ينظر اليه مفكرا ، وبدا فترة كأنه لا يجد مايقوله ... ومالبث أن قال :

ـ لن يصدق أحد هذه الحكاية ..

وتقدم نحو المارد الاشقر مادا يده قائلا :

ـ هات مسدسك ...

فنزع الجندى حزامه وقدمه اليه .. فأبدل العمدة المقذوفين الفارغين بآخرين جديدين ، ووضع الاولين فى جيبه ، ثم أعطى المسدس الى جندى آخر ... أما المارد الاشقر الذى بدا عن كثب وهو صورة للطفولة الساذجة فقد ترك نفسه يقاد الى الزنزانة المجاورة ... وهناك خلع ملابسه كلها وأعطاها للعمدة ... والواقع أن كل شىء كان يتم بغير تعجل ، وكان كل واحد يعرف الدور المطلوب منه ، كما لو كانوا فى عرض مقرر ... وفى النهاية أغلق العمدة بنفسه زنزانة الميت وخرج الى شرفة الحوش ، حيث كان مستر كارميكل لا يزال موجودا فوق المقعد الصغير ..

وعندما اقتيد الى المكتب لم يستجب الى الدعوة التى وجهت اليه للجلوس ، وظل واقفا أمام المكتب وقد ابتلت ملابسه مرة أخرى ، ولم يكد يحرك رأسه عندما سأله العمدة ان كان قد أصبح على دراية بكل شىء ...

قال له العمدة : حسن اذن ... اننى حتى الآن لم اجد وقتا للتفكير فيما انوى أن افعله ، أو حتى فيما اذا كنت سأفعل شيئا

على الاطلاق ... لكن بصرف النظر عما أفعله ، عليك ان تتذكر هذا . سواء أحببت أو لم تحب ، فاننا أصبحنا شريكين فى الصفقة ، ولابد ان تتدبر هذا ...

كان العمدة يتكلم برصانة ، بل بلهجة شبه دراية .. بيد أن مستر كارميكل الذى وقف أمام المكتب وملابسه ملتصقة بجسده بدا جامدا خامدا وكأنه لا يعى شيئا مما يقال له ، حتى بعد أن أغلق الباب المدرع ...

وفى خارج الثكنات وقف جنديان ممسكين بأم بيت امادور من معصميها ... وبدا الثلاثة كأنهم فى راحة ... وكانت المرأة تتنفس بايقاع ساكن وقد جفت عيناها ... ولكن ما أن ظهر العمدة لدى الباب حتى أطلقت صرخة مدوية واهتزت بعنف شديد حتى اضطر احد الجنديين الى التخلى عنها وسمرها الثانى على الارض فى وضع كوضع مصارعة ...

لم ينظر اليها العمدة ، بل اسطحب الجندى الثانى وواجه الجمع الذى كان يراقب هذا الصراع لدى الناصية ... فقال فيهم دون أن يقصد احدا بعينه :

ـ على أحدكم اذا كنتم تريدون تفادى ماهو اسوأ ، أن يأخذ هذه المرأة الى بيتها .. .

ثم شق طريقه خلال الجمع بصحبة الجندى وقصد الى المحكمة ... فلم يجد أحدا ... وعندئذ ذهب الى بيت القاضى اركاديو ودفع الباب دون طرق وصاح ينادى القاضى ... فجاءه من الداخل صوت زوجته التى كانت تعانى من اثقال الحمل :

ـ خرج ...

فقال العمدة دون أن يتحرك من الردهة : الى اين ؟..

فردت المرأة قائلة : والى أى مكان آخر يذهب ، غير بيوت البغاء ؟.

أشار العمدة الى جندى البوليس بالدخول ... ومرا بالمرأة دون أن ينظرا اليها ، وبعد تفتيش غرفة النوم راسا على عقب والتأكد من عدم وجود اثر لرجل بها ، عادا الى غرفة المعيشة .. وقال العمدة :

ـ متى ذهب ؟...

فأجابت المرأة : منذ ليلتين ...

احتاج العمدة الى فترة طويلة للتفكير ، وفجأة صاح :

ـ ابن الفاجرة هذا !.. بامكانه ان يختبىء مائة قدم تحت الارض

... وبامكانه أن يزحف عائدا الى بطن امه الفـــاجرة ... لكننا سنسحبه ميتا او حيا !.. ان الحكومة لها ذراع طويل !..

تنهدت المرأة ، وقالت : استجاب الله لك ، ياحضرة الملازم ..

بدأ الظلام يرخى سدوله ... وكان لا يزال ثمة جماعات يحجزهم البوليس عن بعد من الثكنات ، بيد أن بعضهم صحب أم بيب أمادور الى بيتها ، وبدا كأن البلدة فى سكينة ...

اما العمدة فقد اتجه مباشرة الى زنزانة القتيل ... فطلب مـــن رجاله احضار قطعة من الخيش ، وبمساعدة الجندى المـــرافق له وضع النظارة والكاب فوق الجثة ولف حولها قطعة الخيش ... وبعدئذ بحث عن قطع من الحبال والسلك فى أرجاء الثكنات وربط بها الجثة لوالبيا من العنق الى العقبين ... وعندما فرغ كان العرق يغمره ، ولكن بدت عليه علائم الارتياح ، وكأنمـــا تخلص من عبء يثقله ...

وعند هذا فقط اضاء نور الزنزانة ، وأمر جندى البوليس قائلا :

ـ هات المجرفة ، والمعول ، والمصباح ... وبعد ذلك اذهب الى جونزاليز واحفرا حفرة عميقة فى الخلف حيث الارض أكثر جفافا ..

ثم اختتم قائلا : وتذكر شيئا واحدا الى آخر حياتك : ان هـــذا الولد لم يمت ابدا ...

ومضت ساعتان ولم يفرغا بعد من حفر القبر ... ومن الشرفة تأكد العمدة أنه لا أحد فى الشارع ، سوى أحد رجاله الذى كـان يقوم بالحراسة وحده من ناحية الى ناحية ... وما لبث ان أطفأ نور السلالم ومضى لكى يستريح فى أظلم ركن فى الغرفة الداخلية ...

ثم أخرجه صوت الاب انجيلو من تأملاته .. فقد سمعه أول الامر يتكلم مع جندى البوليس المكلف بالحراسة ، ثم مع شخص آخر كان بصحبته ، وأخيرا عرف صوت هذا الآخر ... وقد ظل قابعا فى المقعد المنطوى الى أن سمع الاصوات من جديد وقد وصلت الان الى داخل الثكنات ، وأعقبها وقع الخطى فى السلالم ... وعند هـــذا الحد مد ذراعه الايسر فى الظلام وامسك بالطبنجة ...

وحين رآه الاب انجيلو يظهر عند رأس السلالم توقف ... ومن خلفه بخطوتين جاء الدكتور جيرالدو مرتديا سترة قصيرة بيضـــاء ومنشأة ، وبيده حقيبة .. وقد ابتدر العمدة بلهجة ودية قائلا وهو يبتسم :

ـ لقد خيبت ظنى ياحضرة الملازم ... كنت انتظر منك طـــوال

ساعات بعد الظهر ان تستدعينى للقيام بتشريح الجثة ...
كان الاب انجيلو يرمق الطبيب بعينيه الشـــفافتين الوادعتين ، وما لبث أن أدارهما الى العمدة ، الذى ابتسم بدوره ، قائلا :
ـ لن يجرى تشريح ، اذ لا توجد جثة ميت ...
فقال القس : نريد أن نرى بيب امادور ...
استمر العمدة موجها كلامه للطبيب ، جاعلا فوهة الطبنجة الى اسفل ، فقال :
ـ وأنا أريد أن أراه أيضا . لكن ليس هناك مايمكن أن نفعله ..
ولبث يبتسم وهو يضيف : انه هرب ...
تقدم الاب انجيلو خطوة ... فرفع العمدة الطبنجة فى اتجاهه ، وقال محذرا :
ـ قف تماما حيث انت ياابى ...
وتقدم الطبيب أيضا خطوة مماثلة ، وقال وهو لايزال يبتسم :
ـ استمع الى شىء واحد ياحضرة الملازم ... من المستحيل اخفاء الاسرار فى هذه البلدة ... منذ الساعة الرابعة بعد الظهر فصاعدا ، وكل انسان يعرف أنهم فعلوا مع ذلك الشاب نفس الشىء الذى فعله دون ساباس مع الحمير التى باعها ...
ـ انه هرب ...
وكان العمدة يراقب الطبيب ، فلم يكد يجد وقتا لوضع نفسه فى وضع استعداد عندما تقدم الاب انجيلو فجأة خطوتين رافعا ذراعيه ... واذا العمـــدة يحرك صمام الامان بضربة من طرف يده ويقف منتصبا منفرج الساقين ، صائحا : قف ! ..
جذب الطبيب القس من كمه ... واخذ القس يسعل ... وقال الطبيب بلهجة شديدة لاول مرة :
ـ لنتكلم على المكشوف ياحضرة الملازم .. ان هذا التشريح لابد من اجرائه ... الآن لابد لنا من تفسير غموض نوبات الاغماء التى تصيب السجناء فى هذه الزنزانة ...
فقال العمدة : يادكتور ... اذا تحركت من مكانك ، فسأرميك بالرصاص .. وهذا ينطبق عليك أيضا يا أبى ...
ووقف ثلاثتهم جامدين . ثم استطرد العمدة قائلا للقس :
ـ بالاضافة الى هذا ، يجب أن تسر يا أبى .. فان الولد كان هو الشخص الذى يضع « الملصقات الفاحشة » ...
فتح الاب انجيلو فمـه بدهشة لـكى يعقب ، لكن نوبة السعال

اسكتته ، بينما واجههما العمدة قائلا :

ـ الآن استمعا لما أقول ... سأبدأ العد ... ومتى وصلت الى « ثلاثة » ، فسأطلق النار على هذا الباب بعينين مغمضتين ... وما عليكما الا أن تعيا هذا ...

ثم أضاف موجها تحذيره للطبيب خاصة : لقد انتهى وقت المزاح ... نحن فى حالة حرب ، يادكتور ..

جذب الطبيب الاب انجيلو من كمه مبعدا ... وبدأ هبوط السلالم دون أن يدير ظهره للعمدة ... ومالبث ان بدأ يضحك عاليا وهو يقول :

ـ انني أحب هذه الطريقة ياجنرال ... الآن قد بدأ كل منا يفهم الاخر ...

بدأ العمدة العد قائلا : واحد ...

لم يسمعا باقى العد ... وعندما افترقا عند ناصية الثكنات . كان الاب انجيلو مضعضعا ، واضطر أن يشيح بوجهه لان عينيه كانتا مبللتين ...

وربت الدكتور جيرالدو على كتفه دون أن يكف عن الابتسام . قائلا :

ـ لا تدهش الى هذا الحد يا ابى ... كل هذا هو الحياة !..

وعندما استدار حول الناصية متجها الى بيته ، القى نظرة على ساعته فى ضوء مصباح الشارع ، فكانت الثامنة الا ربعا ...

لم يستطع الاب انجيلو أن يذوق طعاما ... وبعد أن اعلنت ساعة حظر التجول جلس الى مكتبه وعكف على تسطير رسالة حارة استغرقت كل مشاعره الى مابعد منتصف الليل والمطر لاينقطع ...

وفى صباح اليوم التالى بعد القداس ، وضع الرسالة فى البريد على الرغم من معرفته انها لن تنقل حتى يوم الجمعة ...

وبعد الظهر عاد ترينيداد المريضة فى بيتها ، ثم انتقل لزيارة اسرة كارميكل .. كانت الزوجة والابنة الكبرى مغتمتين ، وكانتا كلما ذكرتا اسم السجين تعالجان اخفاء مشاعرهما الحقيقية ... اما الصغار فكانوا سعداء لبعدهم عن شدة أبيهم ، لاعبين بالارنبين اللذين أهدتهما الارملة مونتيل اليهما ، فى محاولة لجعلهما يشربان من كوب ...

ولم يعد احد يتكلم عن « الملصقات الفاحشة » ... وغدا موضوعها فى جلبة الاحداث الاخيرة مثل حلقة مثيرة فى سلسلة

الماضي ... وقد وجد الاب انجيلو مصداقا لهذا فى جولته المسائية وفى احاديثه فى مكتبه مع جماعة السيدات الكاثوليكيات ..

وقد نام هذه الليلة نوما هادئا ... وقبل بدء الخامسة بعشر دقائق تيقن أنه لايزال على قيد الحياة ... وكانت مينا تفتح باب الكنيسة بينما كان يدق دقة الناقوس الاولى ... ثم جاءته بعد فترة وهى تهز العلبة الفارغة فى يدها قائلة : حظ سيىء .. ولا فأرا واحدا سقط اليوم فى المصيدة !..

***

ـ بيد ان الاب انجيلو لم يعرها اهتماما .. فقد طلع النهار صحوا مشرقا ، نقى الهواء ، وكأنه يشير بأنه فى هذا العام أيضا ، سيحل شهر ديسمبر وأعياده فى موعده المنتظم ... ولم يفتقد الاب انجيلو فى ذكرياته سوى عزف باستور المشحى ... وقال للفتاة المتلمذة :

ـ خيل الى اننى سمعت عزفا فى الليلة الماضية ...

فقالت مينا مؤكدة : عزف بالرصاص ... لقد استمر اطلاق الرصاص الى ماقبل فترة قريبة ...

ـ اين ؟..

ـ فى كل مكان ... يبدو أنهم جنوا وهم يفتشون عن المنشورات السرية ... ويقال انهم رفعوا ارضية دكان الحلاق بالصدفة ، فعثروا على أسلحة ... ان السجن قد امتلأ ، لكنهم يقولون أن الرجال يتجهون الى الغابة للانضمام الى جماعات حرب العصابات ...

تنهد الاب انجيلو ، وقال : لم الاحظ اى شىء ...

واتجه الى الباب الخلفى ، فتبعته التلميذة المترهبة قائلة : وليس هذا كل شىء ... ففى الليلة الماضية ، على الرغم من منع التجول وعلى الرغم من اطلاق الرصاص المتواصل ...

توقف الاب انجيلو ، وراح يرمقها بعينيه الزرقاوين البريئتين .. فتوقفت مينا بدورها والعلبة الخاوية تحت ذراعها ، ولاحت عليها ابتسامة عصبية قبل أن تهم باتمام عبارتها ..

((تمت))

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨٣/٤٩٥٨

الترقيم الدولى : ٤ ـ ٠٥٨ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

هذه الرواية

تحفة اخرى تقدمها « روايات الهلال » بقلم الكاتب الكولومبي الاشهر جبرييل جارسيا ماركيز » الفائز بجائزة نوبل فى الادب حديثا « ١٩٨٢ » ، بعد « الضحية » التى صدرت فى ابريل الماضى . واذا كان القراء قد استهواهم هذا اللون الغريب من أدب امريكا اللاتينية الذى شق طريقه الى مصاف الاداب العالمية ، فسوف تستهويهم اضعافا مضاعفة روايته الطويلة هذه التى قدمها المؤلف فى صورة بانورامية جمعت أبناء بلدة باسرها تتصارع بينهم غرائب الاحداث والوقائع الدرامية وتتفاعل فى نفوسهم عوامل الفساد والجريمة والتبذل والاحقاد والتخفى ، وكل ذلك تحت كابوس لعنة ليلية مروعة تقض المضاجع وتهتك اسرار البيوت ، حتى تبلغ ذروتها فى كارثة لا نجاة منها الا فيما يراه المؤلف لبلوغ بر الامان ، بل ان شخصيات الرواية اشد غرابة من الاحداث ذاتها : العمدة الشيطانى رمز الفساد والافساد ـ الحلاق الفيلسوف الذى ينتزع الاسرار من الرءوس ـ القاضى المزدوج الشخصية الهائم فى دنياه الخاصة ـ طبيب الاسنان الذى يتحدى الموت ـ الارامل المغنيات اللاتى امتلأت حياتهن بالفضائح ـ عشاق الليل فى منازلهم ـ عازف الفجر الذى تسيل من الحانه الدماء والدموع ـ قارئة البخت وغرامياتها الخائبة ـ الى آخر هذه الشخصيات الغريبة التى يمكن أن تنفرد كل منها برواية كاملة .


حصريات


مجلة
الابتسامة